

شرح على سِتَّةِ أَصُولٍ عَظِيمَةٍ مُفِيدَةٍ جَلِيلَةٍ

لفضيلة الشيخ
عبد الرَّزَّاق بن عبد المحسن العباد البدر
حفظهما الله تعالى

النُّسخة الإلكترونية (١)

الشيخ لم يراجع التفريغ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقدِّمة الشَّارِح

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له ومن يضلِّل فلا هادي له.
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمَّدًا عبده ورسوله صلَّى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين..
وبعد..

فبين أيدينا رسالة قيِّمة مختصرة للإمام المجدِّد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ اللهُ جمع فيها أصولاً ستَّة عظيمة بيَّنت في كتاب الله ﷻ بيانًا وافيًا وذكرت لها الدلائل البيِّنات والشَّواهد الواضحات في كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ، بحيثُ كانت واضحة وضوحًا لا خفاء فيه وظاهرةً ظهورًا لا التباس فيه، ومع ذلك فقد ضلَّ فيها أكثر النَّاس وانحرفوا فيها عن جادة الصَّواب وعن الطَّريق السَّوية، وقد نصَّح هذا الإمام رَحِمَهُ اللهُ بجمعه هذه الرِّسالة المشتملة على أصولٍ ستَّة من أصول هذا الدِّين المُبيَّنة في الكتاب والسُّنَّة مُشيرًا إلى أهميَّتها وعظم شأنها ومنبِّها في الوقت نفسه على نوع الانحراف الَّذي وقع فيه أكثر النَّاس فيما يتعلَّق بهذه الأصول الستَّة.



المُقَدِّمَة

مِنْ أَعْجَبِ الْعَجَائِبِ ^(١) وَأَكْبَرِ الْآيَاتِ الدَّالَّاتِ ^(٢) عَلَى قُدْرَةِ الْمَلِكِ الْغَلَّابِ؛ سِتَّةُ أُصُولٍ بَيْنَهَا اللَّهُ تَعَالَى بَيَانًا وَاضِحًا لِلْعَوَامِّ فَوْقَ مَا يَظُنُّهُ ^(٣) الظَّانُّونَ، ثُمَّ بَعْدَ هَذَا غَلِطَ فِيهَا كَثِيرٌ مِنْ أَذَكِيَاءِ الْعَالَمِ وَعُقَلَاءِ بَنِي آدَمَ إِلَّا أَقَلَّ الْقَلِيلِ.

(١) في الجامع الفريد (ط ١٤٢٠): (العُجَاب).

(٢) في الجامع الفريد: (الدَّالَّة).

(٣) في الجامع الفريد: (يَظُنُّ).

الشرح

الشيخ رحمه الله بدأ هذه الرسالة بذكر عظيم شأن هذه الأصول الستة وأنها قد بُينت في كتاب الله ﷻ وُبُينت في سنة رسوله - صلواتُ الله وسلامه عليه - بياناً وافياً، وقد ذكر رحمه الله هذه الأصول وأشار في بداية حديثه عنها أنها أصولُ ستة وذكره رحمه الله لهذا الرقم في بداية حديثه عن هذه الأصول الستة نوعاً من الإعانة على ضبط العلم؛ إعانة طالب العلم على ضبط العلم، فلو أنه ذكر هذه الأصول نثرًا دون إشارة إلى رقم يجمعها ربّما ضعُف ضبط طالب العلم لها؛ لكن إذا قرأها طالب العلم وعرف أنها ستة استجمع ذهنه لضبطها، وهذا من هدي النبي ﷺ في سنته - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - قال: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ»،^(١) قال: «اضمنوا لي ستاً من أنفسكم أضمن لكم الجنة: اصدقوا إذا حدثتم، وأوفوا إذا وعدتم، وأدّوا إذا ائتمتم، واحفظوا فروجكم، وغضّوا أبصاركم، وكفّوا أيديكم»^(٢)، «اجتنبوا السبعِ المؤبقات»^(٣).

يأتي عنه - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - مثل هذا كثير فلا يذكر الأمور نثرًا وإنما يذكر لها رقمًا يحويها، بحيث تُضبط المسائل المقصود بيانها، والأصول المقصود تقريرها وإيضاحها.

لهذا قال رحمه الله: (ستة أصول)، وقوله: (أصول) الأصل: هو ما يبنى غيره، وهو الأساس لغيره، وهذا تنبيه من المصنّف رحمه الله إلى أن هذه من الأصول الكبار والقواعد الجوامع الكلية، ومع أنها أصول وقواعد إلا أنه قد ضلّ فيها أكثر الناس.

وبدأ رحمه الله هذه الرسالة بالتعجب الشديد الذي طرّحه رحمه الله متعجباً وطرّحه أيضاً لطالب العلم، ليشاركه في التعجب والتأمل في هذا الأمر، ولهذا بدأ الرسالة بقوله: (مَنْ أَعْجَبَ الْعُجَابَ)، أي من أشد الأمور إثارة للعجب في الأذهان، وأكبر الآيات الدالة على قدرة الملك الغلاب.

لاحظ الآن نبّه على أمرين:

(١) أخرجه البخاري (ح ١٦) ومسلم (ح ٤٣) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٢٢٦٥٦) من حديث عبادة بن الصّامت، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٤٧٠).

(٣) أخرجه البخاري رحمه الله (ح ٢٧٦٦)، ومسلم رحمه الله (ح ٨٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

نبّه على أنّ الأصول الآتي تقريرها - مع مخالفة أكثر الناس لها رغم وضوحها وبيانها - تدلّ على أمر عجيب جدًّا في حال الناس وواقعهم.

وتدلّ أيضًا في الوقت نفسه على كمال قدرة الله - سبحانه وتعالى - (على قدرة الملك الغلاب). (الملك) أي الذي بيده الملك المتصرّف في هذا الكون عطاءً ومنعاً، وخفضاً ورفعاً، وقبضاً وبسطاً، يُعزُّ ويذلُّ، ويخفض ويرفع، ويعطي ويمنع، ويهدي ويضلُّ.

فالذي يتأمل في هذه الأصول الستة وواقع الناس معها تدلّه على كمال (قدرة الملك الغلاب)، الغلاب كما قال الله - تعالى -: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١)، ﴿غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ أي حكمه نافذ، لا معقّب لحكمه، ولا رادّ لقضائه، يتصرّف في مملكته وفي مخلوقاته كيف شاء، ويدبرّها - تبارك وتعالى - كما يريد، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، من يهده الله فلا مضلّ له ومن يضلّل فلا هادي له، ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾^(٢)، فالأمر بيده تبارك وتعالى.

ومن الدلائل على أنّ الأمر بيده هذه الأصول الستة واضحة وبيّنة وضوح الشمس، ومع ذلك يضلّ أكثر الناس فيها عن سواء السبيل وينحرفون عن الجادة السويّة، فهذا أمر مدعاة للعجب الشديد، والتعجب الشديد، وفي الوقت نفسه فيه دلالة على قدرة الله، قدرته - سبحانه وتعالى - وكمال ملكه وأنه - سبحانه وتعالى - غالب على أمره، وأنّ حكمه نافذ وأنّ الأمور بيده - تبارك وتعالى - يحكم في خلقه بما يشاء، ويقضي فيهم بما يريد، لا معقّب لحكمه ولا رادّ لقضائه تبارك وتعالى.

قال: (وأكبر الآيات الدالة على قدرة الملك الغلاب ستة أصول بينها الله - تعالى -، بيّناً واضحاً للعوام فوق ما يظنّ الظّانون) انظر هنا إلى تأكيد المصنّف رَحِمَهُ اللهُ عَلَى وضوح هذه الأصول الستة ووضوح بيانها في كتاب الله ﷻ، وسنة نبيه ﷺ قال: (بينها الله بيّناً واضحاً)، (بينها الله) أي جعلها أموراً بيّنة ليست ملتبسة، (واضحاً) أي ظاهرة لكلّ أحد، ليس فيها خفاء ولا يكتنفها غموض ولا يلتبسها تعقيد، أو ولا يلبسها تعقيد، بل هي واضحة ظاهرة، في كتاب الله ﷻ وكذلك في سنة نبيه ﷺ (بيّناً واضحاً للعوام) أي أنّ وضوح هذه ليس أمراً مختصّاً بأهل العلم أو بالراسخين في العلم؛ بل هي واضحة للعوام، فضلاً عمّن هو أرفع منهم وأعلم منهم وأفقه منهم واضحة للعوام تماماً، (فوق ما يظنّ الظّانون) يعني وضوحها فوق ما قد يظنّ، يعني قد يظنّ الإنسان أنّها واضحة، لكن وضوحها القويّ الظاهر البيّن، فوق ما يظنّه

(١) سورة: يوسف، الآية (٢١).

(٢) سورة: فاطر، الآية (٢).

الظَّان، ومتى يظهر هذا المعنى الذي قاله الشيخ رحمه الله -؟ عندما يتأمل المسلم أنواع الأدلة الواردة في الكتاب والسنة في تقرير هذه الأصول، وأنها أُقيمت عليها الحجج البيّنات بأنواع من الأدلة، بحيث أن هذا البيان لهذه الأصول فوق ما قد يُظن، لا من حيث تنوع الأدلة، ولا من حيث أيضًا كثرة عددها.

الأصل الأوّل الذي سيأتي الحديث عنه قال ابن القيم رحمه الله: (إنّ عامّة آيات القرآن في تقريره) الذي هو الإخلاص والتحذير من الشرك قال: (بل كل آية في فيها تقريرٌ للتوحيد).

فالشاهد أنّ هذه الأصول بُيّنت بيّناً واضحاً لا خفاء فيه، ليس هذا البيان لأهل العلم أو للرّاسخين في العلم؛ بل للعوام بحيث يفهمها كلّ من يفهم اللسان العربي الذي أنزل به القرآن الكريم.

(ثم بعد هذا غلط فيها كثير من أذكى العالم)، أي رغم وضوحها الشديد، وبيانها البيّن وكونها لا خفاء فيها ولا التباس مع ذلك كلّ غلط فيها كثير من أذكى العالم، كثير من أذكى العالم، هنا قوله: (غلط فيها) هنا العجب، وهنا ظهور الآية التي قال: (آيات دالة على قدرة الملك) فهنا العجب، تعجب غاية العجب عندما يكون هناك طريق يُوصل إلى البلد المقصود واللّوحات الإرشادية بالطريق كثيرة جداً، كلّ ما تمشي خطوتين تجد لوحة إرشادية طريق مكة وسهم يشير إليه، ثم تمضي والطريق أيضًا تجد السهم يشير، ثم تمضي وتجد السهم يشير، ثم في الوقت نفسه تجد كثير من الناس يريدون مكة ولكنهم يأخذون ذات اليمين، وذات الشمال يضيعون ويضلّون وينحرفون هذا أمر في غاية العجب، لأنك إذا تأملت وضوح الطريق وكثرة اللّوحات الإرشادية الدالة عليه ثم نظرت أكثر الناس ينحرفون عنه ثم تتساءل تقول: هل الطريق غير واضح؟ ستقول لك نفسك: وهل أوضح من هذا؟! هل أوضح من هذا؟ هل أزيد من هذا الوضوح؟! ما أمشي خطوة أو خطوتين إلّا وأجد لوحة إرشادية تدلّ وتوضح، فهذا أمر في غاية العجب، كثرة الدلائل والحجج والبراهين، ثم في الوقت نفسه كثرة المنحرفين والزّائعين والضّالين! فهذا أمر فيه مثارة للعجب والتعجب.

وفيه أيضًا دلالة على أنّ الأمور بيد الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، الأمور بيد الله، الهداية بيد الله، الاستقامة بيد الله، صلاح العبد بيد الله، توفيقه بيد الله، سلوكه للطريق القويم بيد الله، كلّ الأمور بيده تبارك وتعالى. وقد سُئل أعرابي قيل له: بم عرفت ربك؟ قال: بنقض العزائم وحلّ الهمم. عرفت ربّي بهذا، أن عزمي على شيء أو همّتي على أمر من الأمور تنتقض وأتّجه إلى غيره، وأنا عازم إلى أمر معيّن وإذا بي أتوجّه إلى آخر.

فهذا يدلّ على أنّ الأمور بيد الله -تبارك وتعالى- وليس هذا معناه أنّ العبد لا مشيئة له ولا اختيار؛ بل للعبد مشيئة يدلّ عليها النصوص في كتاب الله وسنة نبيّه -عليه الصّلاة والسّلام- ويدلّ عليها واقع

الإنسان، لو تأمل الإنسان واقعه وحياته وأموره، يجد أن عنده مشيئة، واضح، عنده مشيئة يختار بها طريق الخير وطريق الشر، ومشيتته تحت مشيئة الله ﴿لِمَن شَاءَ مِنْكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ (٢٨) ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٩) (١).

قال: (عَلِطَ فِيهَا كَثِيرٌ مِّنْ أَذْكِيَاءِ الْعَالَمِ) وهذا فيه دلالة على أن الذكاء وحده لا يكفي العبد في استقامة أموره، وصلاح أحواله، فكم ممن ذكاؤهم مفرط وذهنهم وقاد وحاد وفهمهم قوي ولكنهم يضلون ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ﴾ (٧) (٢)، تجده في غاية الذكاء، ذكاء خارق ذكاء قوي جداً، ولكن أهم أمر خلق لأجله ووجد لتحقيقه ليس عنده منه خبر؛ بل تُعرض عليه حجج واضحة ودلائل مقنعات فيرفضها ويأبأها ولا يقبلها، لا لكونه غبي لا يفهم؛ بل هو ذكي يفهم أمور دقيقة، وأمور عسرة الفهم تجده يفهمها، ثم يُعرض عليه أبين الأمور وأوضحها، فلا يفهمها ولا تقبلها نفسه، وتأتي قبولها قال: (ثُمَّ بَعْدَ هَذَا عَلِطَ فِيهَا كَثِيرٌ مِّنْ أَذْكِيَاءِ الْعَالَمِ وَعُقْلَاءِ بَنِي آدَمَ).

وهؤلاء الذين وصفهم الشيخ رحمه الله بالذكاء هم في الحقيقة كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (أوتوا ذكاءً ولم يؤتوا زكاءً، وأوتوا فهوماً ولم يؤتوا علوماً) فما أغنى عنهم ذكاؤهم ولا أغنت عنهم عقولهم ولا انتفعوا بها، وإذا كان عنده انتفاع بعقله فانتفاعه به محدود ينتهي بموته، وليس لعقله ثمرة بعد موته، ولهذا يندم أهل النار غاية الندم لعدم استعمالهم لعقولهم فيما خلقت له وأوجدت لتحقيقه ويقولون متندمين ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (١٠) (٣)، لكن فساد العقل وانحرافه يُفضي بالإنسان إلى هذا الزلل.

قال: (إِلَّا أَقْلَ الْقَلِيلِ) أي أن أكثر الناس ضلُّوا في هذا الباب، قال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (١٣) (٤)، وقال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ (١٣) (٥)، وقال: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ﴾ (١٦) (٦)، والآيات في هذا المعنى كثيرة فأقل القليل هم الذين هُتدوا إلى صراط الله المستقيم، واستقاموا على الجادة السوية، وأكثر الناس ضلُّوا عن سواء السبيل.

والمؤلف رحمه الله قصد بهذه المقدمة أن ينبّه طالب العلم على أهمية هذه الأصول الستة وعظيم

(١) سورة: التكوين، الآيتان (٢٨-٢٩).

(٢) سورة: الروم، الآية (٧).

(٣) سورة: الملك، الآية (١٠).

(٤) سورة: يوسف، الآية (١٠٣).

(٥) سورة: سبأ، الآية (١٣).

(٦) سورة: يوسف، الآية (١٠٦).

مكانتها، هذا من جهة، وأن ينبّه طالب العلم على ضرورة إقباله الصادق على الله - تبارك وتعالى - أن يهديه وأن يثبت قلبه وألا يزيغه عن سواء الصراط، ومن دعوات النبي ﷺ «يَا مُقَلَّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»^(١)، ومن دعواته أيضاً «اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْكَ أُنَبِّتُ وَبِكَ خَاصَمْتُ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَنْ تُضِلَّنِي، أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَالْجَنُّ وَالْإِنْسُ يَمُوتُونَ»^(٢).

وأراد أيضاً أن ينبّه على ضرورة العناية بهذه المسائل والعناية بضبطها وإتقانها. وأراد أن ينبّه أن الذكاء وحده لا يكفي إذا لم يُرزق صاحبه السداد والتوفيق من الله - تبارك وتعالى -، فلا يغتر الإنسان بما عنده من ذكاء وما لديه من نباهة فكم من ذكي لم يتففع بذكائه ولم يستفد منه.

وأراد أن ينبّه - أيضاً - على خطورة الشبهات، وأنها تُضِرُّ بالناس غاية الضرر، لأنها تقلب الحقائق وتخلط الأوراق، وتُردي بالناس وتخلُّ بالعقول وتُفسد الأذهان، فالشبهات غاية في الخطورة، وإذا أصغى الإنسان للشبهة وأعطاه سماعه أضرت بعقيدته أضرت بعبادته أضرت بصلته بربه تبارك وتعالى. فهنا تنبيه من المصنّف لطالب العلم ألا يخاطر بدينه بسماعه للشبهات ومطالعة لها، لأن الشبهات خطيرة جداً وصاحب البدعة ملقن حجته كما قال السلف - رحمهم الله - أي يشبه على الناس ويلبس عليهم، فمن أرخى لنفسه العنان في سماع الشبهات والإصغاء إليها أفسدت قلبه. ولا يقول الإنسان في هذا المقام: عندي ذكاء، أنا عندي ذكاء، وعندي عقل أميز ولا تضلني. فقد كان أئمة السلف وعلماء السنة - رحمهم الله - أتاهاهم الله ﷻ من العلم والفهم والذكاء وما كانوا يُصغون إلى مجادل ولا يصغون إلى أرباب الشبهات وأهل الأهواء ولا يتيحون لهم الحديث في مجالسهم حتى ولا نصف كلمة كما جاء عن بعضهم كل ذلك حفظاً للدين ومحافظة عليه وصيانة له من الزلل، فهذه كلها أمور ينبّه عليها المصنّف رحمه الله بين يدي ذكره لهذه الأصول الستة العظيمة.



(١) أخرجه الترمذي (ح ٢١٤٠)، وابن ماجه (ح ٣٨٣٤) من حديث أنس رضي الله عنه، وصححه الألباني رحمه الله.

(٢) أخرجه مسلم (ح ٢٧١٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

الأصل الأول

إِخْلَاصُ الدِّينِ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبَيَانُ ضِدِّهِ الَّذِي هُوَ الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَكَوْنُ أَكْثَرِ الْقُرْآنِ فِي بَيَانِ هَذَا الْأَصْلِ مِنْ وَجْهِ شَتَّى بِكَلَامٍ يَفْهَمُهُ أَبْلَدُ الْعَامَّةِ؛ ثُمَّ لَمَّا صَارَ عَلَى أَكْثَرِ الْأُمَّةِ مَا صَارَ، أَظْهَرَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ الْإِخْلَاصَ فِي صُورَةٍ تَنْقُصُ الصَّالِحِينَ وَالتَّقْصِيرُ فِي حَقِّهِمْ^(١)، وَأَظْهَرَ لَهُمُ الشِّرْكَ بِاللَّهِ فِي صُورَةٍ مَحَبَّةِ الصَّالِحِينَ وَاتِّبَاعِهِمْ^(٢).

(١) في الجامع الفريد (حُقوقُهُمْ).

(٢) في الدرر السنية: (أتباعهم) أي: أتباع الصالحين.

الشَّرْحُ

قال رَحِمَهُ اللهُ: (الأصل الأول: إخلاص الدين لله تعالى وحده لا شريك له)، بدأ هذه الأصول بهذا الأصل العظيم، لأنه أصل الأصول وبقية الأصول تبع له، واكتسبت أهميتها من جهته؛ لأنها أصول تُعين على تحقيق هذا الأصل، فالمقصود أصالة هذا الأصل وهو الغاية التي خلق الناس لأجلها وأوجدوا لتحقيقها، ثم الأصول الآتية هي أصول من جهة أنها مُعينة على تحقيق هذا الأصل الذي هو الإخلاص لله - تبارك وتعالى -، إخلاص الدين لله، ومعنى الإخلاص لله - تبارك وتعالى - أي أن يُؤتى بالدين، أي أن يأتي العبد بالدين خالصاً لله - جلّ وعلا - أي نقيّاً صافياً لم يجعل مع الله - تبارك وتعالى - فيه شريك؛ لأن معنى الخالص في لغة العرب، أي: الصافي النقي ما لا شائبة فيه تكدره، الصافي النقي.

ويوضح لنا معنى الإخلاص من حيث اللغة قول الله - تبارك وتعالى -: ﴿وَلَنْ لَكُمْ فِي الْأَنْعَمِ لَعِبْرَةٌ لِّتُؤْذَنُوا بِطُونِهِمْ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ (١) ،

﴿لَبَنًا خَالِصًا﴾، وصف اللبن بأنه خالص، والمعنى أي صافي نقي، وأخبر - تبارك وتعالى - أن هذا اللبن الخالص قد خرج من بين فرث ودم، حتى قال بعض أهل الخبرة أن خروجه من بين الفرث والدم يكون عند الحلب وفي وقته، يكون عند الحلب وفي وقت الحلب، ومن الدلائل على ذلك من حيث الواقع أن الناقة على سبيل المثال إذا أراد صاحبها حلبها يأتي إلى ثديها فيحلب لا يجد حليماً، فإذا قرب ولدها منها ونظرت إلى ولدها عند ضرعها أدّرت، درّت الحليب ثم حلب فيحلب من جهة وولدها يرضع من جهة أخرى، يخرج الحليب من بين فرث ودم صفته خالص، ومعنى خالص أي لا ترى فيه نقطة دم ولا ترى فيه قطعة فرث، وهو للتو خرج من بين الفرث والدم، ولا ترى فيه قطرة دم ولا قطعة فرث صافي، صافي مُصَفّى، نقي منقى أخرجه الله - سبحانه وتعالى - بهذه الصفة خالصاً، ثم جعله أيضاً - سبحانه وتعالى - سائغاً مع علم الإنسان بمخرجه لكنه يستسيغه، ويستلذه، ويرى له طعمًا لذيذاً، مع علمه من أين خرج.

الشاهد قوله: ﴿خَالِصًا﴾ أي: صافياً نقيّاً فالخالص هو الصافي النقي الذي لا شائبة فيه، فاللبن لما لم يكن فيه نقطة دم ولا قطعة فرث خرج صافياً سُمّي بهذا الاسم أو وصف بهذا الوصف خالصاً أي صافياً

(١) سورة: النحل.

نقيًا وقول الله -تعالى-: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾^(١)، وقوله: ﴿إِلَّا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾^(٢)، المعنى أي: الصَّافي النقي، الخالص أي الصَّافي النقي، ما الدِّين الخالص؟ هو الدِّين الصَّافي النقي الذي لم يُقصد به إلا الله لم يُتقرب به إلا إلى الله، فإذا دخل نيَّة العبد في دينه وفي قُرْباته سوى الله -جلَّ وعلا- وقصد التقرب إليه خرج من الإخلاص، لأنَّه لم يصبح صافيًا، ولهذا كان الشُّرك عدل غير الله -تبارك وتعالى- بالله فالمشرك خرج من الإخلاص، لأنَّه عدل غير الله بالله وسوى غيره -تبارك وتعالى- به في إعطاء غير الله من حقَّ الله -تبارك وتعالى- وخصائصه -سُبْحَانَهُ-، وهذا نقيض الإخلاص، الشُّرك نقيض الإخلاص.

ولهذا يمكن أن نعرِّف الإخلاص بمعناه بحيث نقول: الإخلاص هو الدِّين الصَّافي النقي الذي لم يُرد به إلا الله. ويمكن أن نعرِّفه بنفي ضده فنقول: الإخلاص هو الذي لا شرك فيه، ليس فيه شرك، والشُّرك نوعان:

نوع ينافي التَّوحيد من أصله.

ونوع ينافي كماله الواجب.

نوع ينافي التَّوحيد من أصله وهو الشُّرك الأكبر الناقِل من ملة الإسلام وهو تسوية غير الله بالله -تبارك وتعالى- فيما هو من خصائصه تبارك وتعالى.

والشُّرك يقع في أنواع التَّوحيد الثلاثة: الشُّرك في الرُّبوبيَّة، والشُّرك في الإلهيَّة، والشُّرك في الأسماء والصفات.

فإعطاء غير الله شيء من خصائص الله في ربوبيَّته، أو ألوهيَّته، أو أسمائه وصفاته، هذا شرك أكبر ناقل من ملة الإسلام.

والمعترك بين الأنبياء وأقوامهم هو في شرك العبادة ما يتعلَّق بالإقرار بروبيَّة الله الغالب يقرُّون، الغالب يقرُّون بأنَّه الرّب الخالق الرّازق، ومن أنكر منهم، أنكر على وجه المعاندة والاستكبار ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾^(٣)، ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ﴾^(٤).

فغالب جحد من جحد عن استكبار ومعاندة، والمعترك في هذا الباب بين الأنبياء وأقوامهم في باب العبادة وإخلاصها لله تبارك وتعالى، وعدم جعل الشريك معه فيها.

(١) سورة: التين، الآية (٥).

(٢) سورة: الزمر، الآية (٢).

(٣) سورة: النمل، الآية (١٤).

(٤) سورة: الإسراء، الآية (١٠١).

والنوع الثاني الشرك الأصغر، وهو كُلُّ ما جاء في النصوص بوصفه شركاً ولم يصل إلى رتبة الشرك الأكبر الناقل من الملة كيسير الرياء، وكشرك الألفاظ مثل حلف الإنسان بغير الله، وقوله: ما شاء الله وشئت، وقوله: لولا البط لأتانا اللصوص.. ونحو ذلك من الألفاظ الشركية التي يصدر من الإنسان لفظها ولا يعتقد حقيقتها ومضمونها من تسوية لغير الله - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - بالله.

قال: (الأصل الأول: إخلاص الدين لله تعالى وحده لا شريك له) (إخلاص الدين لله) أي إخلاص تدئين العبد لله وتدينه وتقربه لله بالأعمال الصالحات والطاعات الزاكيات، (إخلاص الدين لله) أي لا غيره؛ بأن يقع العمل من العامل مبتغياً به وجه الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -، لا يريد به إلا الله والتقرب إليه ونيل رضاه - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -، (إخلاص الدين لله تعالى وحده لا شريك له)، منبهاً المصنّف رَحِمَهُ اللهُ بهذا إلى أن الإخلاص له ركنان لا يكون إلا بهما، وهما الإثبات والنفي، الإثبات في قوله: (وحده) والنفي في قوله: (لا شريك له)؛ فلا يكون العبد مخلصاً إلا بالنفي والإثبات وهما ركنا التوحيد، التوحيد والإخلاص قائم على ركنين: الإثبات والنفي، إثبات العبادة بكل معانيها لله وحده، ونفيها عن كل ما سواه كما هو واضح في كلمة التوحيد (لا إله إلا الله)، فإنها قائمة على هذين الركنين النفي والإثبات، نفي عام في أولها وإثبات خاص في آخرها، (لا إله) نفي للعبودية عن كل من سوى الله، و(إلا الله) إثبات للعبودية بكل معانيها لله - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - وحده، فمن نفى ولم يثبت لا يكون موحداً، ومن أثبت ولم ينف لا يكون موحداً؛ بل لا يكون من أهل التوحيد إلا بالنفي والإثبات، من نفى بدون إثبات قال: (لا إله) واكتفى بهذه الكلمة، دون أن يثبت الألوهية لله بعد نفيها عمن سواه، فإن هذا إلحاد، قوله هذا إلحاد وعقيدة الملاحدة: لا إله والحياة مادية، نفي لوجود الإله أصلاً.

ومن أثبت ولم ينف لا يكون موحداً، من قال: أنا أو من بأن الله معبود ولكن لا أنفي العبودية عمن سواه، هذا لا يكون موحداً بل هو مشرك.

فالتوحيد لا يكون إلا بالأمرين معاً: النفي والإثبات؛ لا إله إلا الله.

وقوله: (وحده لا شريك له) هذا تأكيد لركني التوحيد، أكد الإثبات بقوله: (وحده)، وأكد النفي بقوله: (لا شريك له).

قال: (الأصل الأول: إخلاص الدين لله تعالى وحده لا شريك له وبيان ضده الذي هو الشرك بالله) يقول المصنّف: الإخلاص بُيِّنَ في القرآن، وضده أيضاً حُذِرَ منه، الإخلاص بُيِّنَ ورُغِبَ فيه، والشرك بُيِّنَ وحُذِرَ منه في القرآن، وتنوّعت الدلائل في القرآن في بيان الشرك وبيان خطورته والتحذير منه وسوء عاقبته على أهله، وتمرّ في القرآن على آيات الكثيرة فيها ذكر الشرك والتحذير منه وذمّ المشركين والتحذير منهم، ولو أنك رجعت إلى بعض المعاجم المفهرسة لألفاظ القرآن عند كلمة (شرك) وتصريفاتها

تجددها وردت في القرآن وروداً كثيرة، في مواضع كثيرة جداً ذمّا له وتحذيراً من أهله وبياناً لسوء عواقبهم في الدنيا والآخرة، يمرّ عليك في هذا الباب آيات كثيرة جداً في القرآن الكريم. هذا ما كان منها بلفظ شرك. لكن أيضاً لو نظرت إلى الألفاظ الأخرى ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ﴾^(١) هذا أيضاً تحذير من الشرك ولم تذكر الكلمة نفسها ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾^(٢)، ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾^(٣)، ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾^(٤)، ﴿كُلُّ هَذَا ذِمٌّ لِلشِّرْكِ﴾^(٥) ثمّ الذين كفروا برّبهم يعدّون ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾^(٦)، ﴿إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٧)، هذا كلّ ذم للشرك فالشرك ذمٌّ في القرآن بذكره بلفظه، وذكر أيضاً بألفاظ ومعاني وتقريرات أخرى فبيّن بياناً وافياً واسعاً شافياً كافياً في كتاب الله عزّ وجل.

قال: (وَكُونُ أَكْثَرِ الْقُرْآنِ فِي بَيَانِ هَذَا الْأَصْلِ مِنْ وَجْهِ شَتَّى) القرآن أكثره في بيان هذا الأصل من وجوه شتّى، هذه الكلمة تفتح لك باباً شريفاً من العلم وأنت تقرّ القرآن، أعظم الأمور المبيّنة في القرآن ما هو؟ التوحيد والتحذير من ضده وهو الشرك وبُيّن في القرآن بياناً شافياً يفهمه أبلد العامة، لم يكتف بقوله: يفهمه العامة؛ بل قال: (يَفْهَمُهُ أَبْلَدُ الْعَامَّةِ) واضح جداً وبأنواع من الأدلّة، فهذا يفتح لك باباً شريفاً من العلم وأنت تقرّ القرآن، بحيث تتبّه للآيات التي تقرّر التوحيد وتحذّر من الشرك تتبّه لها وتفهمها، لأنّها أعظم شيء في القرآن، أعظم شيء في القرآن الكريم آيات التوحيد والآيات التي تحذّر من الشرك، فكيف يليق بمسلم وعادل يمرّ عليها ولا يدري ما هي، لا يدري ما هي، ولا يفهم منها معنى أو يتجاهل عن معناها أو يعرض عن فهم معناها، أو يرتكب المسلك الذي يرتكبه من ضلوا عن سواء السبيل بالصدّ عن تدبّر القرآن وهذا سيأتي الكلام عليه عند المصنّف.

صدّ الناس عن تدبّر القرآن الكريم وفهم آياته، وإذا ذكر لبعضهم آيات التوحيد والتحذير من الشرك، بعض العوام إذا ذكر له آيات التوحيد والتحذير من الشرك يقول: هذه آيات من القرآن وفهم القرآن ليس لكلّ أحد، هكذا يقول: هذه آيات من القرآن وفهم القرآن ليس لكلّ أحد، وإنما فهم القرآن خاص بالمجتهدين والمجتهد صفته كذا وكذا ونحن لا نفهم، ولا يجوز لنا أن نحاول أن نفهم!.. هكذا لبس

(١) سورة: المؤمنون، الآية (١١٧).

(٢) سورة: الإسراء، الآية (٥٦).

(٣) سورة: سبأ، الآية (٢٢).

(٤) سورة: فاطر.

(٥) سورة: الأنعام.

(٦) سورة: الشعراء.

على كثير منهم وأصبح يقرأ آيات التوحيد والآيات المحذرة من الشرك، ولا يحاول أن يفهم منها شيئاً ويبقى فهمه على ضوء ما قرّر له أשיاخه.

وقد مرّ معي في بعض الكتب قصة جميلة في هذا الباب أحد الذين من الله عليهم بفهم التوحيد جلس مع رجل من العوام، ثم وجده وقع في أمر شركي، فنهاه عن الشرك وتلا عليه آية من القرآن والآيات في القرآن في التحذير من الشرك كثيرة فتلا عليه آية إمّا قول الله - تعالى - ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾^(١)، أو ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾^(٢)، تلا عليه آية في التحذير من الشرك، فقال له ذلك الرجل: لم تذكر لنا آيات القرآن؟ ولماذا أيضاً تستشهد بالقرآن وأنت لست من أهل الاجتهاد؟ القرآن والاستدلال وذكر الشواهد منه هذا لأهل الاجتهاد، وأنت لست من أهله، ومثلي ومثلك لا يمكن أن نذكر الآيات ونستدل بها، فردّ كلامه بهذه الطريقة.

فالرجل سكت ولم يتكلّم معه ثم انتظر بعد قليل كانوا في بيت الرجل، في بيت ذلك الرجل جاءت ابنة صغيرة لذلك الرجل، قال له هذا الرجل: من هي هذه؟ قال: هذه ابنتي عمرها ست أو سبع سنوات قال: ليش ما تتزوجها؟ قال: اتق الله هذه بنتي، كيف تقول هذا الكلام؟ قال: لماذا لا تتزوجها؟ ما المانع؟ فغضب الرجل قال: ما سمعت قول الله - تعالى - ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ﴾^(٣)؟ قال له: هذا قرآن.

فلاحظ الآن صاحب الهوى يعني لما يؤتي له بالدليل الذي يردّ هواه وباطله يمتنع بهذه الشبهة، لكن إذا تحدّث في الأمور الأخرى التي يرتضيها تجده يستدلّ بالقرآن، إذا قرئت عليه آيات الشرك ردّها بطرق عديدة، وإذا تليت عليه آيات في الأخلاق أو في الآداب أو في المعاملات أو في أمور أخرى يتقبّلها، أمّا آيات الشرك فلمّا قام في قلبه من الشبهة التي صرفته عن التوحيد وجرفته عنه يمتنع من قبول الآيات ودعاة الضلال وضعوا في هذا الباب قاعدة سيأتي ذكرها عند المصنّف والتنبية على خطورتها في أصل قادم.

قال: (وَكُونُوا أَكْثَرُ الْقُرْآنِ فِي بَيَانِ هَذَا الْأَصْلِ مِنْ وَجْهِ شَتَّى بِكَلَامٍ يَفْهَمُهُ أَبْلَدُ الْعَامَّةِ؛ ثُمَّ لَمَّا صَارَ عَلَى أَكْثَرِ الْأُمَّةِ مَا صَارَ) مراده بقوله: (ثُمَّ لَمَّا صَارَ عَلَى أَكْثَرِ الْأُمَّةِ مَا صَارَ) أي من الجهل بالدين ودروس العلم وقلة الفهم بكلام الله وبكلام رسوله عليه الصلاة والسلام وتكاثر الشبهات على الناس، (لَمَّا صَارَ عَلَى أَكْثَرِ الْأُمَّةِ مَا صَارَ، أَظْهَرَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ الْإِخْلَاصَ فِي صُورَةِ تَنْقُصِ الصَّالِحِينَ وَالتَّقْصِيرِ فِي حَقِّهِمْ)،

(١) سورة: النساء، الآية (٤٨ و ١١٦).

(٢) سورة: الأحقاف، الآية (٥).

(٣) سورة: النساء، الآية (٢٣).

انظر إلى مكر الشيطان هؤلاء، أظهر لهم الإخلاص في صورة تنقص الصالحين، وأن المخلص الذي لا يريد أن يقصد بالعمل إلا الله - تبارك وتعالى - يقولون في حقه: هذا لا يعرف قيمة الصالحين، ولا يعرف مكانتهم، ولا يعرف جاههم، ولا يعرف فضلهم، وليس عند الصالحين قدر، وربما قالوا: هذا لا يحب الصالحين، وربما ارتقوا أيضا وقالوا: هذا يشتم الصالحين ويسب الصالحين وهكذا يأتي ركام من الكلام الباطل الذي هو من مكر الشيطان هؤلاء.

قال: (أظهر لهم الشيطان الإخلاص في صورة تنقص الصالحين والتقصير في حقوقهم)، بمعنى: أن الذي لا يذهب إلى القبر متوجهاً إلى صاحب القبر ملتجئاً إليه باكياً بين يديه متذللاً منكسراً، بزعمهم من لا يفعل ذلك لم يعرف قيمة هذا الصالح، وأصبحت معرفة مكانته ومعرفة قدره عند هؤلاء ارتبطت بالشرك، فلا يعرف قدر الصالح إلا من جعله شريكاً لله، لا يعرف قدر الصالح إلا من جعله شريكاً لله، هذا بزعمهم، (أظهر لهم الشيطان الإخلاص في صورة تنقص الصالحين والتقصير في حقهم) من لا يستنجد بهم، من لا يستغيث بهم، من لا يذبح لهم، من لا ينذر لهم، من لا يصرف لهم أنواعاً من العبادة هذا ينتقصهم ولا يعرف أقدارهم، هذا بزعم هؤلاء، الذين مكر بهم الشيطان.

أيضا (وأظهر لهم الشرك بالله في صورة محبة الصالحين، وأتباعهم) بمعنى: أن الذي يقوى فيه التقرب إلى الصالحين بما لا يقترب به إلا إلى الله ﷻ هذا محب لهم وعرف قدرهم، وأما من سواه فهو لا يعرف قدر الصالحين ولا يحب الصالحين.

بهذا المكر ضل أكثر الناس عن سواء السبيل، مع أنه لا ارتباط بين الأمرين، باب الإخلاص هذا حق لرب العالمين، ومحبة الصالحين ومعرفة أقدارهم لا يرتبط بها لا من قريب ولا من بعيد إعطاؤهم شيئا من خصائص الله.

ولهذا كان النبي عليه الصلاة والسلام مع بيانه للتوحيد سد كل المنافذ التي تفضي إلى الشرك سمع رجلا يقول: ما شاء الله وشئت قال: «أجعلني لله ندا؛ بل ما شاء الله وحده»، ^(١) ولما جيء بذلك الأسير إلى النبي عليه الصلاة والسلام فقال: إنني أتوب إلى الله ولا أتوب إلى محمد. قال عليه الصلاة والسلام: «عرف الحق لأهله»، ^(٢) ولما جاء ذاك الوفد إلى النبي عليه الصلاة والسلام فقالوا: أنت سيدنا وابن سيدنا قال: «قولوا بقولكم أو ببعض قولكم ولا يستجرينكم الشيطان» ^(٣) وقال: «إنني لا أحب أن ترفعوني فوق منزلتي

(١) أخرجه أحمد في المسند (تحقيق أحمد شاكر)، (ح ١٨٣٩)، وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح، وأخرجه البيهقي في سننه (ح ٥٨١٢)،

وحسنه الألباني (ح ١٣٩). من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (ح ١٥٥٢٤) من حديث الأسود بن سريع رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أبو داود (ح ٤٨٠٦)، وصححه الألباني رحمه الله.

التي أنزلني الله إياها»^(١) وقال عليه الصلاة والسلام: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم فإنما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله»^(٢) وقال وهو في النزع عليه الصلاة والسلام: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»^(٣) وقال عليه الصلاة والسلام: «إن شرار الخلق عند الله يوم القيامة الذين يتخذون قبور الأنبياء مساجد»^(٤).

جاء عنه في هذا الباب أحاديث كثيرة جداً لما سمع المرأة تنشد وتقول: وفينا نبي يعلم ما في غد. غضب وقال: «لا تقولِي هكذا وقولي ما كُنْتَ تقولِينَ»^(٥).

فهو عليه الصلاة والسلام بين التوحيد وحذر من الشرك وحمي حمى التوحيد وسد الذرائع التي تفضي بالناس إلى الشرك ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾^(٦) بين عليه الصلاة والسلام البيان الوافي.

ومع هذا البيان ووضوح هذا الأمر وجلاته وعدم خفائه إلا أن أكثر الناس ضلُّوا في هذا الباب عن سواء السبيل: بسبب الشبهات.

وبسبب مكر الشيطان بهؤلاء.

وبسبب إصغائهم لدعاة الضلال والباطل.

وبسبب أيضاً نشأتهم في مجتمعات لا يسمعون فيها إلا صوت أهل الشبهات؛ يعني بعض العوام نشأ في مجتمعات ليس فيها إلا صوت أهل الشبهات، لا يسمع صوت من يدعو إلى التوحيد.

ولا أنسى قصة مرت علي مع شخص كان جالساً إلى جنبي في المسجد بعد صلاة المغرب منذ سنوات ليست قليلة، وكنت أقرأ القرآن وكان ماداً يديه يدعو، ثم ازداد في اجتهاده بالدعاء فأصبح له بكاء وتسمع نشيجه وهو يبكي فآثر في خشوعه، ثم رفع صوته قليلاً في دعائه فإذا به يقول في دعائه: يا رسول

(١) أخرجه أحمد في المسند (ح ١٣٥٣٠) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (ح ٣٤٤٥) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (ح ١٣٣٠)، ومسلم (ح ٥٢٩) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) رواه أحمد (٤٣٥ / ١)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٣ / ٣٤٥)، وابن خزيمة (٧٨٩)، وابن حبان (٣٤٠ و ٣٤١ - موارد)، والطبراني في

الكبير (١٠٤١٣)، وأبو نعيم في ((أخبار أصبهان)) (١ / ١٤٢) عن بن مسعود بسند حسن كما قال الهيثمي في المجمع (٢ / ٢٧)، وجود

إسناده شيخ الإسلام في ((الاعتناء)) (٣٣٠).

(٥) أخرجه البخاري (ح ٤٠٠١) من حديث ربيع بنت معوذ رضي الله عنها.

(٦) سورة: التوبة.

الله.. يبكي وخاشع ومتذلل، ويقول في دعائه: يا رسول، ويعرض حاجاته باكية خاشعا متذللاً، ويعرض حاجاته يا رسول الله عليه الصلاة والسلام مستغيثاً مستنجداً، فتحدثت معه طويلاً بدأت حديثي معه أولاً بسؤاله عن صحته وعن بلده وعن أولاده وعن سفره وعن أمور عديدة، ثم لما اطمأن للحديث معي انتقلت إلى جانب آخر وهو أهمية الدعاء، وقلت له: الدعاء عظيم ومكانته في الدين عظيمة وأخذت أسوق له آيات وأحاديث عديدة في فضل الدعاء، ففرح بها لأنه كان يدعو وأخذت أذكر له آيات وأحاديث في فضل الدعاء ومكانة الدعاء، ثم التفت عليّ وأنا أحدثه عن فضل الدعاء ومكانته وكأن الرجل كانت عنده مشاكل أو هموم وحاجات ويبكي يريد من الرسول عليه الصلاة والسلام أن يكشفها عنه ويجليها، فأخذت أذكر له آيات فضل الدعاء.

ثم انتقلت إلى حديث آخر أبين فيه أن الدعاء حق لله ﷻ، وقلت له: هذه مسألة بُيَّت في القرآن بياناً واضحاً لا خفاء فيه وأخذت أذكر له آيات عديدة كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (١٣)﴾ إن تدعوهم لا يسمعون دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيمة يكفرون بشرككم ولا ينبتك مثل خير (١٤) ﴿١﴾ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً (٥٦) ﴿٢﴾ وقوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شَرْكِ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهيرٍ (٢٢)﴾ ﴿٣﴾، وقوله - تعالى -: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ ﴿٤﴾ وآيات في هذا المعنى عديدة.

ثم انتقلت إلى السنة وبدأت أذكر له أحاديث، وكل ذلك وهو يصغي إليّ.

ثم ذكرت له أمثلة من أدعية النبي عليه الصلاة والسلام كان إذا أوتي له بمريض - كما في حديث عائشة - قال: «أَذْهَبِ الْبَاسَ رَبَّ النَّاسِ وَاشْفِ أَنْتَ الشَّافِي»، (٥) وكان إذا خرج عليه الصلاة والسلام من بيته قال: «اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَضِلَّ أَوْ أُضَلَّ، أَوْ أَزِلَّ أَوْ أُزَلَ، أَوْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلِمَ، أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ»، (٦) وكان إذا وضع جنبه على فراشه قال: «اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ» (٧) وذكرت له نماذج واضحة لا

(١) سورة: فاطر، الآيتان (١٣-١٤).

(٢) سورة: الإسراء، الآية (٥٦).

(٣) سورة: سبأ، الآية (٢٢).

(٤) سورة: الأحقاف، الآية (٥٥).

(٥) أخرجه البخاري (ح ٥٧٥٠)، ومسلم (ح ٢١٩١) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٦) أخرجه أبو داود (ح ٥٠٩٤)، وابن ماجه (ح ٣٨٨٤) من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

(٧) أخرجه البخاري (ح ٢٤٧)، ومسلم (ح ٢٧١٠) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

لَبَسَ فِيهَا يَفْهَمُ الْعَامِّي فَضْلاً عَنْ غَيْرِهِ.

انتهيت وهو يسمع بكل إصغاء وإنصات، فلما انتهيت أحبيت أن أطمئن هل الرجل فهم أو لم يفهم؟ هل استوعب هذه الآيات أو لم يستوعبها؟ فطرحته عليه سؤالاً، السؤال في حد ذاته خاطئ لكنني قصدته من أجل الاطمئنان، لما انتهيت قلت له: أيش رأيك في هذا الكلام؟ أنا طرحت هذا السؤال عليه قاصداً أن أعرف هل استوعب أو لم يستوعب، فقال لي كلمة عجيبة ذكرتها بكلمة للإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ. قال لي كلمة عجيبة: تقول لي أيش رأيك؟ وأنت تقرأ علي آيات وأحاديث!

هذه ذكرتني بكلمة للشافعي رَحِمَهُ اللهُ سئل مرة عن مسألة فأجاب فيها بحديث، فقال له السائل: وما رأيك؟

فغضب رَحِمَهُ اللهُ، قال: هل رأيته معلقاً الصليب على صدري؟ هل رأيته زجاجة الخمر في يدي! أقول لك: قال رسول الله ﷺ وتقول: ما رأيك؟! هذا كلام ما يليق.

فالرجل قال لي: تقول لي: أيش رأيك؟ وأنت تقرأ علي آيات وأحاديث!

فأعدت عليه السؤال نفسه قلت: نعم لازلت عند سؤالي ما رأيك؟ لأنني سمعتك تقول في دعائك كذا وكذا وكذا فأقصد بقولي: (ما رأيك؟) هل أنت هذه الآيات استوعبتها وقبلتها أم أن لك رأياً آخر خلاف هذه الآيات؟

فقال لي كلمة أخرى أعجب من الأولى قال لي: أنا من بلد كذا وكذا سمى لي بلده لا أحد قال لي الكلام هذا. كلمة قوية، ما ذا تعني هذه الكلمة؟! كلمة مؤلمة، تعني أنه مسكين نشأ في بلده إذا سمع الخطيب يوم الجمعة عرض له شبهات في هذا الباب، وإذا حضر درساً أيضاً عرضت عليه شبهات في هذا الباب، وإذا قرأ كتاباً فالكاتب التي حوله تعرض عليه شبهات في هذا الباب، ثم ينشأ ويكبر ويكبر ولا يسمع إلا الشبهات، وآيات التوحيد التي هي واضحة حُجب عنها وغُيبت عنه وأيضاً حُذر من فهمها بقواعد وسيأتي كلام المصنف لاحقاً عن هذا الأمر.

فهذا أصل الأصول وأعظمها وبُيِّن في القرآن بياناً وافياً يفهمه أبلد العامة ومع ذلك ضل فيه أكثر الناس.

والله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- هو الهادي إلى سواء السبيل، والتوفيق بيده وحده ﷻ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضل فلا هادي له.

فنسأله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- أن يهدينا إليه صراطاً مستقيماً وأن يثبتنا على دينه.

والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.



الأصل الثاني

أَمَرَ اللَّهُ بِالْاجْتِمَاعِ فِي الدِّينِ وَنَهَى عَنِ التَّفَرُّقِ فِيهِ، فَبَيَّنَ اللَّهُ هَذَا بَيَانًا شَافِيًا كَافِيًا تَفْهَمُهُ الْعَوَامُّ، وَنَهَانَا أَنْ نَكُونَ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا [وَاخْتَلَفُوا] ^(١) قَبْلَنَا فَهَلَكُوا، وَذَكَرَ ^(٢) أَنَّهُ أَمَرَ الْمُرْسَلِينَ ^(٣) بِالْاجْتِمَاعِ فِي الدِّينِ وَنَهَاهُمْ عَنِ التَّفَرُّقِ فِيهِ.

وَيَزِيدُهُ وَضُوحًا مَا وَرَدَتْ بِهِ السُّنَّةُ مِنَ الْعَجَبِ الْعُجَابِ فِي ذَلِكَ، ثُمَّ صَارَ الْأَمْرُ إِلَى أَنْ الْاِفْتِرَاقُ فِي أُصُولِ الدِّينِ وَقُرُوعِهِ هُوَ الْعِلْمُ وَالْفَقْهُ فِي الدِّينِ، وَصَارَ الْأَمْرُ بِالْاجْتِمَاعِ فِي الدِّينِ لَا يَقُولُهُ إِلَّا زَنْدِيقٌ أَوْ مَجْنُونٌ!

(١) زيادة من الجامع الفريد.

(٢) في الدرر السنية (وَأَذْكُرْ).

(٣) في الجامع الفريد: (المُسْلِمِينَ).

الشَّرْحُ

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضلَّ له ومن يضلَّ لا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صَلَّى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين..

قال المصنَّف رَحِمَهُ اللهُ: (الأصل الثاني: أَمَرَ اللهُ بِالاجْتِمَاعِ فِي الدِّينِ وَنَهَى عَنِ التَّفَرُّقِ فِيهِ، فَبَيَّنَ اللهُ هَذَا بَيَانًا شَافِيًا كَافِيًا تَفْهَمُهُ الْعَوَامُّ، وَنَهَانَا أَنْ نَكُونَ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا قَبْلَنَا) هَذَا الْأَصْلُ مِنَ الْأَصُولِ الْعَظِيمَةِ الْمَبِينَةِ بَيَانًا وَافِيًا شَافِيًا فِي كِتَابِ اللهِ ﷻ وَفِي سُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ وَقَدْ تَكَاثَرَتِ النُّصُوصُ فِي ذَلِكَ وَتَضَافَرَتْ فِي تَقْرِيرِهِ وَالِدَّعْوَةُ إِلَى الْاجْتِمَاعِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْإِفْتِرَاقِ قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾^(١)، وَقَالَ: ﴿وَلَا تَنَزَعُوا أَنْفُسَكُمْ فَيُشَلُّوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾^(٢)، وَقَالَ -جَلَّ وَعَلَا-: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾^(٣)، وَقَالَ -جَلَّ وَعَلَا-: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾^(٤).

قوله: ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ أي اجتمعوا عليه ولا يتخذ كل لنفسه منهاجًا وطريقًا، فتتفرقون في الدين كلُّ له رأي، وكلُّ له قول، وكلُّ له وجهة، وإنما المطلوب من أهل الإيمان أن يجتمعوا على دين واحد وهو دين الله ﷻ، وأن يعتصموا بحبل الله جميعًا وأن يطرَحُوا التَّفَرُّقَ وَالشَّقَاقَ وَالتَّدَابِرَ وَالتَّبَاغُضَ وَالتَّعَادِي، فَإِنَّ ذَلِكَ لَا خَيْرَ فِيهِ وَالْخَيْرُ فِي الْاجْتِمَاعِ، وَالرَّحْمَةُ فِي الْاجْتِمَاعِ، وَقَدْ صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- أَنَّهُ قَالَ: «الْجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ، وَالْفِرْقَةُ عَذَابٌ»^(٥) الْاجْتِمَاعُ رَحْمَةٌ لِلْأُمَّةِ؛ يَجْتَمِعُونَ عَلَى دِينِ اللهِ وَعَلَى كِتَابِ اللهِ وَعَلَى كَلِمَةِ سِوَاءٍ وَعَلَى تَنَاصُحٍ وَتَعَاوُنٍ وَتَعَاطُفٍ وَتَرَاحُمٍ، مُحَقِّقِينَ قَوْلَ النَّبِيِّ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: «مِثْلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ مِثْلُ الْجَسَدِ الْوَاحِدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ

(١) سورة: الأنعام، الآية (١٥٩).

(٢) سورة: الأنفال، الآية (٤٦).

(٣) سورة: آل عمران، الآية (١٠٣).

(٤) سورة: الشورى، الآية (١٣).

(٥) أخرجه أحمد في المسند (ح ١٨٣٦١) من حديث النعمان بن بشير، وصحَّحه الألباني في «الصَّحِيحَةُ» (ح ٦٦٧).

عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»، قال -عليه الصلاة والسلام-: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»^(١).

وهذه المعاني العظام لا يكون لها تحقق إلا بالاجتماع ونبد الفرقة، والفرقة إذا وجدت بين الناس وجد معها كل شر، والاجتماع إذا وجد بينهم وجدت الرحمة والخير والأمن والراحة والطمأنينة، وذهب عنهم الشيطان، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام عن التفرق قال: «إنما تفرقكم هذا من الشيطان»^(٢)، إنما تفرقكم هذا من الشيطان، متى قال النبي -عليه الصلاة والسلام- هذه الكلمة؟

كان الصحابة في سفر مع النبي ﷺ قال راوي الحديث عنه عليه الصلاة والسلام قال: فكنا إذا أتينا مكاناً للمبيت تفرقنا، أو للمقيل تفرقنا بحيث يبقى طائفة هناك، وطائفة هنا، وطائفة يستظلون بتلك الشجرة، وطائفة في الشجرة الأخرى، فقال عليه الصلاة والسلام: «إنما تفرقكم هذا من الشيطان» يعني انظر حرص الدين على الاجتماع حتى في الأسفار، في الإقامة في أي مكان يدعو إلى الاجتماع، وقال -عليه الصلاة والسلام-: «إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية»^(٣)، بينما إذا اجتمعوا وتقاربوا في حلق العلم، في مجالس الذكر في مجالسهم العامة، يتقاربون ويكون بينهم الألفة والمحبة والتراحم والتآخي كل هذه المعاني دعا إليها الإسلام وهي من أصوله التي دعا إلى تحقيقها، قال -تعالى-: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾^(٤)، وفي الحديث يقول -عليه الصلاة والسلام-: «لا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره»^(٥)، وكما أن الإسلام دعا إلى الاجتماع ونهى عن الفرقة فإنه حذر أشد التحذير من كل أمر يחדش في الاجتماع أو يخل به، وحرّم كل أمر من هذا القبيل، حرّم الغيبة، وحرّم النميمة، وحرّم التناجش -النجش-، وحرّم الحسد، وحرّم التدابر والتباغض، كل هذه نهى عنها الإسلام، لأنها تחדش وتخل بالاجتماع، وتفرق بين المسلمين وتشتت شملهم، وتوجد الفرقة بينهم، فكل أمر يخل بالاجتماع نهى عنه الإسلام وحرّمه، ولهذا من يطالع الأدلة في كتاب الله ﷻ وسنة نبيه ﷺ المشتملة على الأمر بالاجتماع والنهي عن الفرقة يجدها كثيرة جداً، بينت كما قال المصنّف بياناً وافياً (أمر الله بالاجتماع في الدين ونهى عن التفرق فيه، فبين الله هذا بياناً شافياً كافياً تفهمه العوام) هذا الأصل مبين في الكتاب والسنة بياناً شافياً تفهمه العوام، فضلاً عن غيرهم من طلاب

(١) أخرجه البخاري (ح ٦٠١١)، ومسلم (ح ٢٥٨٦) من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أبو داود (ح ٢٦٢٨) من حديث أبي ثعلبة الخشني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أبو داود (ح ٥٤٧) من حديث أبي الدرداء، وحسنه الألباني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) سورة: الحجرات، الآية (١٠).

(٥) أخرجه مسلم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (ح ٢٥٦٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

العلم أو العلماء، من ذا الذي يخفى عليه بيان الله في كتابه وبيان رسوله عليه الصلاة والسلام في سنته بالأمر بالاجتماع؟

قال -عليه الصلاة والسلام-: «عليكم بالجماعة»^(١) «فإن يد الله على الجماعة»^(٢) من الذي يخفى عليه دعوة الإسلام للاجتماع ونبذ للفرقة؟ فهذا أمر يُبين في كتاب الله ﷻ بياناً شافياً وافياً تفهمه العوام، فضلاً عن غيرهم.

قال: (وَنَهَانَا أَنْ نَكُونَ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا قَبْلَنَا فَهَلَكُوا) أيضاً ممّا جاء بيانه في الكتاب والسنة حول هذا الأمر الإخبار عن عواقب المتفرقين ممّن كانوا قبلنا، وأنّهم لم ييؤوا بتفرقهم إلاّ الفشل والخسران وضياح الدين وتشّتت الشمل هلكوا بسبب التفرّق، والتفرّق في الدين يعني لم يجتمعوا على الدين الذي بلغهم ووصل إليهم لم يجتمعوا عليه، وإنّما تفرّقوا وأصبح كلّ على قبيل وكلّ على وجهة. قال: (وذكر أنّه أمر المسلمين بالاجتماع في الدين، ونهاهم عن التفرّق فيه) وهذا في آيات كثيرة مرّ الإشارة إلى طرف منها.

قال رحمه الله: (ويزيده وضوحاً) أي يزيد هذا الأمر وضوحاً وبياناً (مَا وَرَدَتْ بِهِ السُّنَّةُ مِنَ الْعَجَبِ الْعَجَابِ فِي ذَلِكَ) أي أنّ تبيان السنة لهذا الأمر، وأمر النبي عليه الصلاة والسلام بالاجتماع وتحذيره من الفرقة، جاء في السنة مبيناً بياناً وافياً جاء في السنة من بيان ذلك العجب العجّاب كما عبّر بذلك المصنّف يعني كمّاً كبيراً، وقدراً مهيئاً عظيماً من الأحاديث عن رسول الله ﷺ في الأمر بالاجتماع والتحذير من الفرقة، وجاء الأمر بالاجتماع في أحاديث كثيرة بالنّص على هذا اللفظ (الاجتماع).

وجاء في أحاديث أخرى عديدة بالمعنى الذي يدلّ عليه والمقصد الذي يرمي إليه الاجتماع، وكذلك التحذير من الفرقة وكلّ أمر يؤدّي إليها أو يفضي إليها، والأحاديث عنه عليه الصلاة والسلام في الأمر بالاجتماع والنهي عن الفرقة كثيرة جداً، وما أحوج الناس إلى الوقوف على كلامه عليه الصلاة والسلام في هذا الباب حتّى يُعالج ما في الصدور من شتات، وميل إلى الافتراق، وأخذاً بأسباب الافتراق والعدوان.

ولهذا من البحوث المقترحة في هذا الباب أن يُجمع أنواع دلالات السنة على الاجتماع وذمّ الفرقة، أنواع دلالات السنة على الاجتماع وذمّ الفرقة في أحاديث النبي -عليه الصلاة والسلام- كم يحتاج الناس إلى الوقوف على ذلك، هو باب كما قال المصنّف: (مَا وَرَدَتْ بِهِ السُّنَّةُ مِنَ الْعَجَبِ الْعَجَابِ)، فلو وقف عليها طالب العلم وجمعها وصنفها إلى أنواع بحيث تجتمع، أو يجتمع قدرٌ عظيم من هذه الأحاديث في موضع واحد، والذي ورد عنه -عليه الصلاة والسلام- في هذا الباب قدرٌ كبيرٌ جداً كما أشار المصنّف

(١) أخرجه الترمذي (ح ٢١٦٥) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وصححه الألباني رحمه الله.

(٢) أخرجه الترمذي (ح ٢١٦٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنه، وصححه الألباني رحمه الله.

رَحِمَهُ اللهُ إِلَى ذَلِكَ.

ثُمَّ مَعَ هَذَا الْأَمْرِ مَعَ وَضُوحِ هَذَا الْأَمْرِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَكَثْرَةِ الدَّلَائِلِ فِيهِمَا عَلَيْهِ، يَقُولُ الْمَصْنَفُ: (ثُمَّ صَارَ الْأَمْرُ) أَيِ عِنْدَ النَّاسِ وَفِي وَاقِعِهِمْ وَفِي حَيَاتِهِمْ (إِلَى أَنَّ الْافْتِرَاقَ فِي أُصُولِ الدِّينِ وَفُرُوعِهِ هُوَ الْعِلْمُ وَالْفَقْهُ فِي الدِّينِ، وَصَارَ الْأَمْرُ بِالْاجْتِمَاعِ فِي الدِّينِ لَا يَقُولُهُ إِلَّا زَنْدِيقٌ أَوْ مَجْنُونٌ!!) يَعْنِي انْقِلَابَ الْأَمْرِ رَأْسًا عَلَى عَقْبِ أَصْبَحَ بِسَبَبِ كَثْرَةِ الشَّتَاتِ وَالْافْتِرَاقِ وَتَفَرُّقِ النَّاسِ أَصْبَحَ الدَّاعِي إِلَى الْاجْتِمَاعِ مَذْمُومًا، وَالدَّاعِي إِلَى الْافْتِرَاقِ مَحْمُودًا، صَارَ وَاقِعَ النَّاسِ فِي هَذَا الْبَابِ أَنَّ الْافْتِرَاقَ فِي أُصُولِ الدِّينِ وَفُرُوعِهِ هُوَ الْعِلْمُ وَهُوَ الْفَقْهُ فِي الدِّينِ، الْافْتِرَاقُ فِي أُصُولِ الدِّينِ وَفُرُوعِهِ هُوَ الْعِلْمُ، بَلْ يُمَدَحُ!!

وَلَعَلَّنَا نَسْمَعَ فِي حَيَاتِنَا وَوَاقِعِنَا مَنْ يَرْفَعُونَ رَايَاتٍ يَمَجِّدُونَهَا وَيَعْدُّونَهَا هِيَ صَمِيمُ الْعِلْمِ وَهِيَ كِبْدُ الْحَقِيقَةِ، يَقُولُونَ: حُرِّيَّةُ الْإِعْتِقَادِ، حُرِّيَّةُ الرَّأْيِ حُرِّيَّةُ الْكَلِمَةِ.. كَلِمَاتٌ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ تُطْلَقُ وَنَظَائِرُهَا كَثِيرٌ، أَيُّ أَنَّ كُلَّ لَهُ رَأْيٍ، وَكُلُّ لَهُ عَقْلٌ، وَكُلُّ لَهُ عَقِيدَةٌ، وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ هَذَا دَعْوَةٌ لِلتَّفَرُّقِ وَحَمْدٌ لَهُ، وَثَنَاءٌ عَلَيْهِ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ اجْتِمَاعٌ إِلَّا عَلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ، أَمَّا إِذَا كَانَ النَّاسُ كُلُّ لَهُ وَجْهَةٌ، كُلُّ لَهُ عَقِيدَةٌ، وَكُلُّ لَهُ مَذْهَبٌ كَيْفَ يَجْتَمِعُونَ؟

فِي قَضَايَا الدِّينِ عَمُومًا لَكِنْ لَوْ أَخَذْنَا مِثَالًا، رَجُلٌ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ وَهُوَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ ارْضَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ وَعَمْرٍ، وَآخِرُ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ وَيَقُولُ: اللَّهُمَّ الْعَنْ أَبَا بَكْرٍ وَعَمْرٍ أَيْنَ هَذَا مِنْ هَذَا؟ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ بَيْنَهُمْ اجْتِمَاعٌ وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ هُنَا: حُرِّيَّةُ كَلِمَةٍ أَوْ حُرِّيَّةُ رَأْيٍ.

هَذَا مِثَالٌ، وَإِلَّا قَسَّ عَلَيْهِ بَقِيَّةُ أُمُورِ الدِّينِ، شَخْصٌ يَقُولُ: الْإِيمَانُ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ، وَآخِرُ يَقُولُ: لَا يَزِيدُ وَلَا يَنْقُصُ أَوْ آخِرُ يَثْبِتُ الْقَدْرَ وَيُؤْمِنُ بِهِ وَآخِرُ يَنْفِيهِ وَيَجْحَدُهُ.. وَهَكَذَا، اخْتِلَافٌ فِي الْعَقِيدَةِ وَاخْتِلَافٌ فِي الْعِبَادَةِ، هَذِهِ الْأُمُورُ مَا يُمْكِنُ أَنْ تَوْجَدَ وَتَبْقَى وَيَبْقَى مَعَهَا اجْتِمَاعٌ، وَلِهَذَا الْجَمَاعَةُ لَا يَكُونُ إِلَّا عَلَى مَاذَا؟ إِلَّا عَلَى الدِّينِ، وَالتَّفَرُّقُ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي الدِّينِ، وَلِهَذَا أَحَدُ الْعُلَمَاءِ قَالَ كَلِمَةً عَظِيمَةً فِي مَعْنَى قَوْلِ النَّبِيِّ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -: «وَلَا تَبَاغُضُوا»، قَالَ: (فِي قَوْلِهِ ﷺ: «وَلَا تَبَاغُضُوا» نَهْيٌ عَنِ الْبِدْعَةِ)، مَا مَعْنَى هَذَا الْكَلَامِ؟ قَالَ فِي قَوْلِهِ ﷺ: «وَلَا تَبَاغُضُوا» نَهْيٌ عَنِ الْبِدْعَةِ؛ لِأَنَّ الْبِدْعَةَ إِذَا وُجِدَتْ وَجِدَتْ الْفَرْقَةَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، الْبِدْعَةُ تَفَرِّقُ وَالسُّنَّةُ تَجْمَعُ، وَلِهَذَا يُقَالُ: أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ وَأَهْلُ الْبِدْعَةِ وَالْفَرْقَةِ، الْبِدْعَةُ إِذَا وُجِدَتْ فَرَّقَتْ، وَالسُّنَّةُ إِذَا وُجِدَتْ جَمَعَتْ السُّنَّةُ تَجْمَعُ وَالْبِدْعَةُ تَفَرِّقُ.

فَلَا يُمْكِنُ أَنْ نَغَالِطَ حَقَائِقَ الْأُمُورِ وَنَطْلُبَ الْجَمَاعَةَ عَلَى الْبِدْعَةِ، كُلُّ عَلَى بِدْعَةٍ وَيُطْلَبُ الْجَمَاعَةُ عَلَى الْبِدْعَةِ.

بَلْ بَعْضُهُمْ قَعَدَ فِي هَذَا قَاعِدَةً عُدَّتْ أَصْلًا فِي الْعِلْمِ لَدَى أَقْوَامٍ، قَالَ: نَجْتَمِعُ فِيمَا اتَّفَقْنَا فِيهِ وَيَعْذَرُ بَعْضُنَا بَعْضًا فِيمَا اخْتَلَفْنَا فِيهِ. بِحَيْثُ كُلُّ عَلَى عَقِيدَةٍ، وَكُلُّ عَلَى رَأْيٍ، كُلُّ عَلَى مَذْهَبٍ، وَيَعْذَرُ بَعْضُنَا

بعضاً فيما اختلفنا فيه، هذا ضياع للدين هذا تقعيد لضياع الدين، وتقعيد لافتراق المسلمين وعدم اجتماعهم.

فالمصنّف رحمه الله يقول هنا: (صَارَ الْأَمْرُ إِلَى أَنْ الْاِفْتِرَاقَ فِي أَصُولِ الدِّينِ وَفُرُوعِهِ هُوَ الْعِلْمُ وَالْفِقْهُ فِي الدِّينِ) والمعنى معنى كلامه واضح، أصبح الكلمات التي تطلق ويُدعى فيها إلى الاجتماع على غير كلمة سواء وإنما كل على فكره وكل على رأيه وكل على عقيدته ونحلته ومذهبه، أصبحت مثل هذه الدّعوات هي الدّعوة للعلم والدّعوة الصّحيحة في أفهام كثير من الناس.

وفي مقابل ذلك (وَصَارَ الْأَمْرُ بِالْاجْتِمَاعِ فِي الدِّينِ لَا يَقُولُهُ إِلَّا زَنْدِيقٌ أَوْ مَجْنُونٌ!)، نعم هناك شعارات تُرفع للدّعوة إلى الاجتماع، لكن أين الشّعار الذي يُرفع للاجتماع في الدين أي الدين الصّحيح المُتلقّي من كتاب الله وسنة نبيه - صلوات الله وسلامه عليه - قال: (وصار الأمر بالاجتماع في الدين لا يقوله إلا زنديق أو مجنون) عند من؟ عند هؤلاء أهل الافتراق، أصبح لا يدعو إلى الاجتماع في الدين إلا من هو عندهم زنديق أو مجنون، ومن يحذر من البدع التي تفرّق ومن يحذر من الأهواء التي تفرّق، يصفونه بصفات شنيعة وألقاب سيئة ويتّهمونه في عقله، يتّهمونه في فكره، يتّهمونه في قصده، وفي نيّته ويقعون في عرضه، وهو لم يفعل إلا أن دعا إلى السنة وحذر من نقيضها وضدّها وهو البدعة والحدث في دين الله.

وهنا ينبّه المصنّف أن الدّعوة للاجتماع ليست دعوة للاجتماع هكذا كيفما اتفق وكيفما كان، وإنما هي دعوة للاجتماع على كلام الله وكلام رسوله، على دين الله وعلى كتابه وعلى سنة رسوله - عليه الصّلاة والسّلام -، وربّ العالمين لما أمر العباد بالاجتماع والاعتصام قال: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾^(١)، حبله قيل: القرآن، قيل: السنة، قيل: الإسلام، وهذا كله صحيح كلّها حبل الله وحبله هو دينه الذي دلّ عليه كتابه وسنة نبيه ﷺ.



(١) سورة: آل عمران، الآية (١٠٣).

الأصل الثالث

أَنَّ مِنْ تَمَامِ الاجْتِمَاعِ السَّمْعَ وَالطَّاعَةَ لِمَنْ تَأَمَّرَ عَلَيْنَا، وَلَوْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا؛ فَبَيَّنَ اللَّهُ^(١) هَذَا بَيَانًا شَافِيًّا كَافِيًّا^(٢)، بِوُجُوهٍ^(٣) مِنْ أَنْوَاعِ الْبَيَانِ شَرَعًا وَقَدَرًا.
ثُمَّ صَارَ هَذَا الْأَصْلُ لَا يُعْرِفُ عِنْدَ أَكْثَرِ مَنْ يَدَّعِي الْعِلْمَ، فَكَيْفَ الْعَمَلُ بِهِ؟!

(١) في الجامع الفريد: (النَّبِيُّ ﷺ).

(٢) في الجامع الفريد: (شَائِعًا ذَائِعًا).

(٣) في الجامع الفريد: (بِكُلِّ وَجْهٍ).

الشَّرْحُ

ثم ذكر رحمه الله الأصل الثالث أن من تمام الاجتماع السَّمْع والطَّاعَة لمن تأمّر علينا ولو كان عبداً حبشياً، قال: (فبين الله هذا بياناً شائعاً كافياً)، شائعاً أي ذائعاً منتشرًا، و(شافياً) أي فيه الشفاء، والكفاية والغنية، (بوجوه^(١)) من أنواع البيان شرعاً وقدرًا)، (شرعاً) أي فيما جاء من الدلائل على ذلك في الكتاب والسنة، والأدلة في القرآن والسنة في السَّمْع والطَّاعَة كثيرة، قال رحمه الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾^(٢)، وفي سنة النبي -عليه الصلاة والسلام- أحاديث كثيرة جداً في السَّمْع والطَّاعَة أقرأ طرفاً كبيراً منها في كتاب الإمارة من «صحيح مسلم»، أورد أحاديث كثيرة جداً فيها الأمر بالسَّمْع والطَّاعَة لمن تأمّر، وأشار المصنّف رحمه الله هنا إلى حديث العرباض بن سارية الذي قال فيه العرباض: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون فقلنا: يا رسول الله كأنها موعظة مودّع فأوصنا، قال: «أوصيكم بتقوى الله عز وجل والسَّمْع والطَّاعَة لمن تأمّر عليكم وإن كان عبداً»^(٣) وجاء في بعض الأحاديث «وإن كان عبداً حبشياً، كأن رأسه زبيبة»^(٤) إذا تأمّر عليكم، وصارت له الغلبة وتولّى الأمر واستتبّ له الأمر، فالسَّمْع والطَّاعَة.

والأحاديث في هذا الباب كثيرة منها ما جاء في الصحيح عن عبادة بن الصّامت قال: بايعنا رسول الله ﷺ على السَّمْع والطَّاعَة في العسر واليسر، والمنشط والمكره، وألا ننازع الأمر أهله قال: «ما لم تروا كفراً بواحاً عندكم فيه من الله برهان»^(٥) وجاءت فيها أحاديث فيها الوعيد لمن نزع اليد من الطَّاعَة وأنه إذا مات على ذلك مات ميتة جاهليّة.

ويمكن الوقوف على الأحاديث في هذا الباب في كتاب الإمارة من صحيح مسلم؛ لأنه رحمه الله جمع في

(١) في الجامع الفريد: (بِكُلِّ وَجْهٍ).

(٢) سورة: النساء، الآية (٥٩).

(٣) أخرجه الترمذي (ح ٢٦٧٦). وقال: حسن صحيح. وأبو داود (ح ٤٦٠٧)، وابن ماجه (ح ٤٢، ٤٣) وأحمد في المسند (ح ١٧٠٧٩). وصححه الألباني رحمه الله.

(٤) أخرجه البخاري (ح ٦٩٣) عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٥) أخرجه البخاري (ح ٧٠٥٦)، ومسلم (ح ١٧٠٩) من حديث عبادة بن الصّامت رضي الله عنه.

هذا الباب قدرًا كبيرًا من الأحاديث عن رسول الله ﷺ، فهذا الأمر بُيِّن في الكتاب والسنة كما أشار المصنّف (بيانا شافيا كافيا بوجوه من أنواع البيان) بوجوه من أنواع البيان، فهذا بحث آخر مقترح.

البحث الأول وجوه أنواع البيان في الأمر بالاجتماع.

والآخر وجوه أنواع البيان في السمع والطاعة، وهذا الأمر مرتبط بالذي قبله، أو هذا الأصل مرتبط بالأصل الذي قبله.

الأصل الأول: الاجتماع، والثاني: السمع والطاعة.

وهذان أصلان مترابطان، لا يتحقّق الأوّل منهما إلّا بالثاني، لأنّه لا اجتماع إلّا بإمام، ولا إمام إلّا بسمع وطاعة؛ بل إنّ هذه الأصول الثلاثة التي ذكرها المصنّف رَحِمَهُ اللهُ هنا مترابطة:

الإخلاص في العبادة.

وأن يؤدّي الناس عبادتهم مطمئنين بأمن وأمان وسلامة وطمأنينة.

وهذا لا يتحقّق لهم إلّا بالاجتماع، أمّا إذا كانوا متفرّقين متعادين متباغضين شغلّتهم الفرقة عن الدّين وعن العبادة وعن الإخلاص، وصاروا متشتّتين في آرائهم وأفكارهم ووجهاتهم عن العبادة التي خلّقوا لأجلها.

والقيام بالعبادة يحتاج إلى اجتماع، والاجتماع لابدّ فيه من رأس -وليّ أمر؛ إمام- ولا إمام إلّا بسمع وطاعة، ولهذا إذا انفرط العقد في هذه انفرط في جميعها، إذا نُزعت اليد من الطّاعة وُجد تبعاً لذلك الفرقة، وإذا وُجدت الفرقة ضاع الدّين، وإذا وجدت الفرقة ضاع الدّين وضلّ الناس، وقد أشار المصنّف رَحِمَهُ اللهُ قال: (ونهانا أن نكون كالذين تفرّقوا واختلّفوا قبلنا فهلكوا)، فالفرقة هلاك وضياح للدّين، وتشتّت للشّمل، كيف يتحقّق للناس عبادة؟ وكيف يتحقّق لهم طلب علم؟ وكيف يتحقّق لهم ممارسة مصالحهم العامّة والخاصّة إذا كانوا متفرّقين متعادين متباغضين؟ كيف تُقام الحدود؟ كيف يطمئنّ الناس على الأموال والأعراض؟

كلّ هذه الأمور لا تتحقّق إلّا بالجماعة، والجماعة لا تتحقّق إلّا بإمام، والإمامة لا تكون إلّا بسمع وطاعة، ولهذا كان من الأصول التي أكّد عليها -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- السّمع والطّاعة؛ بل إنّهُ ﷺ، ضمّ هذا الأصل في بعض أحاديثه إلى فرائض الإسلام كما قال في حجة الوداع ﷺ قال: «اعبدوا ربّكم، وصلّوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأدّوا زكاة مالكم، وأطيعوا إذا أمركم، تدخلوا جنة ربّكم»^(١) فذكر الطّاعة لذي الأمر مضمومة إلى إقام الصّلاة وإيتاء الزّكاة وصوم رمضان، وجعل هذه كلّها من موجبات

(١) أخرجه الترمذي (ح ٦١٦) من حديث أبي أمامة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «الصحيحة» (ح ٨٦٧).

دخول الجنة، قال: «تدخلوا الجنة ربكم»، فأكد -عليه الصلاة والسلام- على هذا الأمر، وجاء عنه أيضًا في حجة الوداع أنه قال: «عليكم بالسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد».

وجاء عنه أيضًا في حجة الوداع الجمع بين هذه الأصول الثلاثة التي أشار إليها المصنف في حديث واحد، في مسجد الخيف خطب الناس في أول أيام التشريق في مسجد الخيف، في الخيف من منى كما في حديث جبير بن مطعم في حديث ابن مسعود يقول جبير: سمعت رسول الله ﷺ في الخيف من منى يقول: «نضر امرئًا سمع مقالتي فوعاها فأذاها كما سمعها فرب حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه: ثلاث لا يغل عليهن قلب امرئ مسلم: إخلاص العمل لله، ولزوم جماعة المسلمين ومناصحة من ولّاه الله أمرهم»^(١) فجمع -عليه الصلاة والسلام- بين هذه الأمور الثلاثة في حديث واحد، جمعها في حديث واحد، وأخبر -عليه الصلاة والسلام- أن قلب المسلم لا يغل على هذه الأمور، (لا يغل) أي لا يوجد فيه غل وأنفة من هذه الأمور؛ بل يتقبلها بانسراح وقبول ولا يستنكف ولا يستكبر؛ بل يتقبلها بكل انسراح: الإخلاص ولزوم الجماعة والسمع والطاعة، خلاف ما كان عليه أهل الجاهلية.

والمصنف رحمه الله شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب لما صنف كتابه مسائل الجاهلية التي خالفها الإسلام، بدأها بأضداد هذه الثلاث قال:

المسألة الأولى: الشرك.

والمسألة الثانية: التفرق.

والمسألة الثالثة: عدم السمع والطاعة والاستكبار عن السمع والطاعة.

هذه جاهلية شرك وتفرق وعدم سمع وطاعة، والإسلام جاء بالتوحيد، وجاء بالاجتماع، وجاء بالسمع والطاعة وهي أمور مترابطة.

وقوله: «ثلاث لا يغل عليهن قلب امرئ مسلم»، قال أيضًا العلماء في معناه: أن من وجد هذه الأمور الثلاثة انتفى من قلبه الغل، من وجدت فيه هذه الأمور الثلاثة الإخلاص لله، ولزوم الجماعة، والنصيحة لولاة الأمر من وجدت فيه هذه الخصال الثلاثة فليس للغل في قلبه مكان.

أما الإخلاص فإن قلبه متجه في أعماله كلها لطلب رضا الله لا لمطمع دنيوي ولا لشهرة يريد بها ولا لحظوظ تخصه يطمع بها، وإنما أعماله يقوم بها مبتغيًا بها وجه الله ﴿إِنَّمَا نَطْمَعُكَ لَوَجْهِ اللَّهِ﴾^(٢)، فهو في معاملته للناس ومجالسته لهم ومحادثته لهم، كل ذلك قائم عنده على الإخلاص والمراقبة لله -تبارك

(١) أخرجه الترمذي (ح ٢٦٥٨). من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. وابن ماجه (ح ٢٣٠) من حديث زيد بن ثابت. وصححه الألباني في

«الصحيحة» (٤٠٤).

(٢) سورة: الإنسان، الآية (٩).

وَتَعَالَى -، فمن كان هذا شأنه أين سبيل الغلّ إلى قلبه وقلبه معمور بالإخلاص للمعبود ﷺ؟! ثم ينضمّ إلى ذلك حرصه على الجماعة، ونبذه للفرقة ورغبته في اجتماع الدّين، واجتماع أهل الدّين عليه، فمثل هذا الذي هو ملازم للجماعة حريصٌ عليها، حريصٌ على الاجتماع، لا يدخل إلى قلبه الغلّ، لأنّ قلبه متّجه إلى اجتماع كلمة المسلمين ونبد الفرقة، فالغلّ ليس له سبيل على قلبه، وإذا كان ناصحاً لولاية الأمر في قلبه بالدّعاء وسؤال الله ﷻ صلاحهم وهدايتهم وتقديمه للنّصيحة لهم ما استطاع، بالوسائل الشرّعية والطّرق الشرّعية، إذا كان بهذا الأسلوب وبهذه الطّريقة لا يكون في قلبه غلّ ولهذا هنا تجد الفرق بين العالم وصاحب الهوى كما قال البرهاري رَحِمَهُ اللهُ فِي كتابه شرح السّنة قال: (إذا رأيت الرّجل يدعو للسّلطان فاعلم أنّه صاحب سنّة، وإذا رأيت يدعو على السّلطان فاعلم أنّه صاحب بدعة) وهنا يتبيّن الفرق صاحب السّنة يُهمُّه اجتماع المسلمين ويعرف أنّ اجتماعهم لا يكون إلّا على إمام، ويعلم أنّ صلاح الإمام صلاح للرّعية، ولهذا كان الفضيل يقول: (لو كانت لي دعوة مستجابة لجعلتها للسّلطان)، قال عبد الله بن المبارك: (ومن يقدر على هذا إلّا مثلك)، هذه درجة في الفقه عالية ما يصل إليها كلّ أحد قال: (من يقدر على هذا إلّا مثلك) لو قيل الآن لأحدنا: لك دعوة مستجابة، لك دعوة واحدة مستجابة ادع بشيء واحد معيّن مستجاب، الآن وتظفر به إلى ماذا يتّجه؟ يقول عبد الله بن المبارك: (ومن يقدر على هذا إلّا مثلك) الآن هذا قلب كبير الذي يقول: (لو كانت لي دعوة مستجابة لجعلتها للسّلطان) هذا قلب كبير؛ لأنّه استوعب الأُمَّة بالدّعوة المستجابة لم يخصّها لنفسه، استوعب الأُمَّة كلّها لماذا؟ لأنّه إذا دعا للسّلطان وأصلح الله ﷻ السّلطان، الرّعية تبع، إذا طاب الملك طاب الجند مثل ما قال أبو هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (وإذا خاب خاب الجند)، والنّاس تبع لملوكهم في الغالب، وإلّا قد يفسد الرّئيس أو الوالي ويصلح عدد من الرّعية والعكس أيضًا، لكن الأصل أنّ النّاس تبع لملوكهم ولهذا هذا قلب كبير لمّا يقول: (لو كانت لي دعوة مستجابة لجعلتها للسّلطان) قلبه استوعب بهذه الدّعوة الأُمَّة كلّها، واستوعب مصلحة الأُمَّة كلّها، بخلاف لو أنّه خصّ هذه الدّعوة بنفسه، فهذا من الفقه من الدّين.

وتجد في المقابل من النّاس من في قلبه غلّ وتجارت به الأهواء فيطعن في الولاية ويسبّ الولاية، بل صحّ في الحديث عن النّبي ﷺ، أنّه قال: «لا تسبّوا أمراءكم»،^(١) نهى عن ذلك، إذا كان الإنسان عنده دعاء فليدع لهم بالصّلاح، بالهداية، بالاستقامة لأنّ صلاحه يعود على رعيّتهم على مجتمعتهم، على المسلمين.

(١) تخريج كتاب السنة (ح ١٠٦١) وصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ.

وهذا باب من الفقه ما يصل إليه من دخل قلبه الهوى ولا يصل إليه الإنسان إلا إذا كان على السنة سالمًا من الهوى، ولهذا لا يغلُّ يعني من كان عنده نصح لولاة الأمر لا يغلُّ قلبه، لأن النصح للولاة يطرد الغلُّ، كما أن لزوم الجماعة يطرد الغلُّ، كما أن الإخلاص لله - تبارك وتعالى - يطرد الغلُّ. فالشاهد أن النبي - عليه الصلاة والسلام - جمع بين هذه الأصول الثلاثة في حديث واحد قاله في مسجد الخيف، قاله في الخيف من منى، وهذا الحديث «ثلاث لا يغلُّ عليهنَّ قلب امرئ مسلم» وأوله: «نُصِّرَ الله امرئًا سمع مقالتي» حديث متواتر رواه عن النبي - عليه الصلاة والسلام - أكثر من عشرين صحابيًا، ولعلَّ من أسباب تواتر الحديث أنه أُلقي في مجمع عام، أُلقي في مجمع عام وفي خطبة عامة يسمعها الجميع، فهذا كله من نصح النبي - عليه الصلاة والسلام - لأئمة وبيانه لأئمة صلوات الله وسلامه عليه.

وقول المصنّف رحمه الله هنا: أن هذا بين (شرعًا وقدرًا)، شرعًا أي بما جاء في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ من أدلة على ذلك، وبيانه قدرًا أي بما يرى ويُشاهد ويُعاين من الوقائع والأحداث المدمية المؤلمة بسبب التفرق، وأيضًا ما يُشاهد ويُعاين من الأحداث المفرحة بسبب الاجتماع، وكيف أنه بالاجتماع تتحقق الرحمة للناس وبالفرقة يؤولون بالعذاب ويُصبحون نهبًا للأعداء وإذا تنازع أهل الإيمان وتفرقوا ذهبت هيبتهم وضعفت كلمتهم وتسلبت عليهم عدوهم، فهذا أمرٌ مبينٌ قدرًا، من ينظر في حال الناس وفي واقعهم عبر التاريخ يرى واضحًا أثر الاجتماع، ويرى أيضًا واضحًا أثر الفرقة.

ثم يقول المصنّف بعد بيانه لهذا الأمر: (ثُمَّ صَارَ هَذَا الْأَصْلُ لَا يُعْرَفُ عِنْدَ أَكْثَرِ مَنْ يَدَّعِي الْعِلْمَ، فَكَيْفَ الْعَمَلُ بِهِ؟!) هذا الأصل الذي هو السمع والطاعة لا يُعرف عند أكثر أهل العلم يعني دعك عن العوام، لا يُعرف عند أكثر أهل العلم فكيف العمل به؟! فكيف أن يعمل به، يعني يحقق السمع والطاعة التي أمر بها، إذا دخلت الأهواء القلوب عميت عن السنة، وأصبح يشتغل من هو معتنٍ بالعلم بالوقعة في الولاية وإيغار الصدور على الولاية وملء القلوب بالغش على الولاية والحقد وغير ذلك من المعاني، التي ليس في القرآن ولا في الأحاديث حرف واحد يدعو إليها، لا يوجد في الأحاديث حرف واحد يدعو إلى هذه الأمور؛ لكن ترى في الأحاديث وبكثرة أمر بالسمع والطاعة، أمر بالاجتماع أمر بالدعاء للولاية أمر بالنصيحة للولاية، أحاديث كثيرة في هذا المعنى، ولا يوجد حديث واحد فيه الأمر بسبهم أو الأمر بالغش لهم، أو الأمر بإيغار الصدور عليهم أو ملء النفوس غشًا لهم، لا يوجد حديث واحد فمن عمل بهذه الأمور أعني الغش والغل والسب هل رائده في هذه الأعمال السنة؟ إن قال: نعم، يأتي بحرف واحد في السنة، يأتي بحرف واحد في السنة يدل على هذه الأمور، وإن كان رائده الهوى وهو فعلاً رائده فهذا يُهلك نفسه ويهلك غيره على نفسه وعلى غيره شرٌ عظيم وفسادٌ كبير، فالسنة ليس فيها إلا الدعوة

للاجتماع والمناصحة، حتّى لو حصل من ولي الأمر فساد وجور وظلم ففي هذا المقام أكّد النبي ﷺ أيضاً على السّمع والطّاعة قال: «اسمع وأطع وإن أخذ مالك وضرب ظهرك»^(١) وهذا فيه لفت انتباه إلى عموم النّاس أنّ ضياع حظّ الإنسان ونصيبه الدّنيوي ليس مخوّلاً لنزع اليد من الطّاعة، وكم من أناس كان سبب نزع اليد من الطّاعة هو فوات حظّه الدّنيوي، لم يحصل كذا ولم يحصل كذا فيبدأ يسبّ في الولاة ويطعن فيهم ويوغر الصدور عليهم وإذا فتشت عن سبب هجمته هذه لا تجدها نصرة للدين وإنّما ماذا؟ نظراً لحظّ النّفس ولهذا لفت الانتباه النبي ﷺ إلى هذا الأمر قال: «اسمع وأطع وإن أخذ مالك وضرب ظهرك»^(٢) قال: اسمع وأطع، وجاء أيضاً «اصبروا حتّى يستريح بر أو يستراح من فاجر»،^(٣) أكّد على هذا المعنى، وكثير من النّاس عندما يدخل في هذه القضية يدخل لحظوظه الدّنيوية: إمّا كان يريد رئاسة فما حصلت له، أو زعامة لم تتحقّق له، أو مالاً أو إلى غير ذلك ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾^(٤).

لكن النّاصح الذي ليس في قلبه غل همّه دين الله ﷻ حتّى لو فاته بعض حظّه، اجتماع النّاس وصلاحي أمرهم أهمّ عنده وأولى عنده بالعناية.

يذكر الشّوكاني رحمه الله في رسالة له في هذا الباب قصّة تصوّر حال العوام في هذا الباب يقول: (كنا في مجلس فتكلّم أحدهم في أحد الوزراء أخذ يطعن فيه، فقلت له: تطعن فيه لدينه أو للدّنيا، قال: بل للدّين يقول: ثم سكتنا قليلاً، فبدأ الرّجل يتكلّم عن ذاك الوزير، قال: الفاعل ابن الفاعل يركب الفاره من الدّواب، ويلبس الفاخر من الثّياب، ويسكن الكذا من القصور)، أصبح الحديث عن ماذا؟ عن الدّنيا ربّما لو أعطي هذا مثله قصورا... انتهت المشكّلة، فأصبح طعنه فيه في ماذا؟ طعن فيه في أمر الدّنيا ليس نصحاً للدّين، ولو كان نصحاً للدّين ليس هذا سبيله، سبيله النّصيحة المبيّنة في سنّة النبي الكريم - عَلَيْهِ الصّلاة والسّلام -، فهذه الأمور لا تصلح إلّا بالسّنة، والسّنة لا بدّ فيها من قراءة الأحاديث النبي ﷺ بتجرّد من الأهواء وكثيراً من النّاس بسبب غلبة الأهواء عليهم يستوحش من قراءة الأحاديث التي فيها الأمر بالسّمع والطّاعة، يستوحش منها يقرأ بلا استيحاش الأحاديث التي في الصّلاة، ويقرأ بلا استيحاش الأحاديث التي في الزّكاة، وإذا جاء إلى مثل كتاب الإمارة من صحيح مسلم استوحش من الأحاديث، لماذا؟!

(١) أخرجه أبو داود (ح ٤٢٤٤) من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، وحسنه الألباني في «الصّحيحة» (١٧٩١).

(٢) أخرجه مسلم (ح ١٨٤٧) من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه.

(٣)

(٤) سورة: التوبة.

الذي أمر بالصلاة والصيام هو الذي أمر بالسمع والطاعة ومصلحة المسلمين في هذا كله، مصلحة المسلمين في هذا كله، فهذا باب عظيم وأصل مهم، عندما يغلب على الناس الأهواء يضيّعونه، ويكون تضييعهم له ليس مبنياً على قواعد شرعية، وإنما مبني على أهواء تتجاري بالناس وتذهب بهم المذاهب، وفي هذا الباب تجد من يسلك هذا المسلك، مسلك الفرقة والوقعة في الولاية يوصف بين عوام المسلمين بماذا؟ ها يوصف بمن لا تأخذه في الله لومة لائم، يقول كلمة الحق ولا يبالي، وألقاب تطلق في غير محلها، حتى يُنفخ في الناس وحقيقة أمره أنه يشقُّ صف المسلمين ويفرّق كلمتهم ولا يتحقّق فيهم على يديه خيراً، الخير بالاجتماع، الرحمة بالاجتماع بإصلاح الأمور بالنصيحة بالدعاء بالتعاون باللين، ليس بإيغار الصدور وتفريق الكلمة وتشتيت الشمل هذه أمور لا يتحقّق بها خير.

فالشاهد أن هذه الأصول الثلاثة: الإخلاص والاجتماع والسمع والطاعة أصول كثير بيانها في النصوص والأدلة ولكن قلّ من يعمل بها بسبب الأهواء التي تتجاري بالناس.

نسأل الله ﷻ أن يحفظنا أجمعين وأن يصلح أحوالنا وأن يبصّرنا بسنة نبيه الكريم، وألا يجعل في قلوبنا غلاً لما أمرنا الله به، وأن يصلح أحوالنا بالسنة وأن يجمع كلمتنا على الحق والهدى، وأن يُعيدنا من البدع والأهواء والفرقة إنه -تبارك وتعالى- سميع الدعاء، وهو أهل الرجاء وهو حسبنا ونعم الوكيل.



الأُصلُ الرابع

بَيَانُ الْعِلْمِ وَالْعُلَمَاءِ، وَالْفِقْهِ وَالْفُقَهَاءِ؛ وَبَيَانُ مَنْ تَشَبَّهَ بِهِمْ وَلَيْسَ مِنْهُمْ؛ وَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ - تَعَالَى - هَذَا الْأُصْلَ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾^(١)، إِلَى قَوْلِهِ قَبْلَ ذِكْرِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ﴾^(٢)، الْآيَةُ.

وَيَزِيدُهُ وَضُوحًا: مَا صَرَّحَتْ بِهِ السُّنَّةُ فِي هَذَا مِنَ الْكَلَامِ الْكَثِيرِ الْبَيِّنِ الْوَاضِحِ لِلْعَامِّيِّ الْبَلِيدِ. ثُمَّ صَارَ هَذَا أَغْرَبَ الْأَشْيَاءِ! وَصَارَ الْعِلْمُ وَالْفِقْهُ هُوَ الْبِدْعُ وَالضَّلَالَاتُ، وَخِيَارُ مَا عِنْدَهُمْ: لَبْسُ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ! وَصَارَ الْعِلْمُ الَّذِي فَرَضَهُ اللَّهُ عَلَى الْخَلْقِ وَمَدْحُهُ لَا يَتَفَوَّهُ بِهِ إِلَّا زَنْدِيقٌ أَوْ مَجْنُونٌ! وَصَارَ مَنْ أَنْكَرَهُ وَعَادَاهُ وَجَدَّ^(٣) فِي التَّحْذِيرِ مِنْهُ، وَالنَّهْيِ عَنْهُ، هُوَ الْفَقِيهُ الْعَالِمُ!!

(١) الْآيَةُ (٤٠).

(٢) الْآيَةُ (١٢٢).

(٣) فِي الْجَامِعِ الْفَرِيدِ (وَصَنَّفَ).

الشَّرْحُ

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله و صلى الله وسلّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد..

قال: (الأصل الرابع: بَيَانُ الْعِلْمِ وَالْعُلَمَاءِ، وَالْفِقْهِ وَالْفُقَهَاءِ؛ وَبَيَانُ مَنْ تَشَبَّهَ بِهِمْ وَلَيْسَ مِنْهُمْ) هذا الأصل عقده المصنّف رَحِمَهُ اللهُ وَأُورِدَهُ هُنَا لِأَنَّهُ أَصْلُ التَّبَسُّعِ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ، وَاخْتِلَطَ عَلَيْهِمْ دَعَاةُ الْحَقِّ مِنَ دَعَاةِ الْبَاطِلِ، وَأَصْبَحَ النَّاسُ يَأْخُذُونَ عَنْ كُلِّ مُتَكَلِّمٍ وَيَتَّبِعُونَ كُلَّ نَاعِقٍ وَلَا يُمَيِّزُونَ بَيْنَ أَهْلِ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ؛ بَلْ لَيْسَ عِنْدَهُمْ آلَةٌ يُمَيِّزُونَ بِهَا بَيْنَ مَنْ هُوَ دَاعِيَةٌ لِلْحَقِّ أَوْ دَاعِيَةٌ لِلْهَوَى وَالْبَاطِلِ وَرَبُّ الْعَالَمِينَ أَرشَدَ فِي كِتَابِهِ السَّائِلِينَ وَالْمُسْتَفْتِينَ وَالْمُتَعَلِّمِينَ أَرشَدَهُمْ إِلَى الْأَخْذِ عَنْ أَهْلِ الذِّكْرِ ﴿فَسَأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٤٣)، لَيْسَ الْأَخْذُ عَنْ كُلِّ أَحَدٍ وَإِنَّمَا الْأَخْذُ عَنْ أَهْلِ الذِّكْرِ، وَهُمْ أَهْلُ الْعِلْمِ وَالْفَقْهِ بِدِينِ اللَّهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- وَعِنْدَمَا يَخْتَلِطُ هَذَا الْأَمْرُ عَلَى النَّاسِ يَصْبِحُ أَخْذُهُمْ عَنْ كُلِّ أَحَدٍ وَتَلْقِيَهُمْ عَنْ كُلِّ مُتَحَدِّثٍ، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ الانْحِرَافِ عَنْ دِينِ اللَّهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-، وَقَدْ صَحَّ فِي الْحَدِيثِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأُتَمَّةُ الْمُضِلِّينَ» (٢) وَأُتَمَّةُ الضَّلَالِ هُمْ مَنْ يَلْبَسُونَ لُبُوسَ الْعِلْمِ، وَيَتَزَيُّونَ بِزِيِّ الْعُلَمَاءِ، وَلَكِنَّهُمْ يَنْشُرُونَ الْبِدْعَ فِي الْأُمَّةِ وَالْخِرَافَاتِ وَالْأَهْوَاءِ وَالضَّلَالَاتِ وَمَا لَا أَصْلَ لَهُ فِي دِينِ اللَّهِ، وَيَلْبَسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَيَحْجُبُونَهُ عَنِ النَّاسِ فَتَنْتَشِرُ عَلَى أَيْدِيهِمُ الْبِدْعُ وَتَنْتَشِرُ عَلَى أَيْدِيهِمُ الْخِرَافَاتُ، وَلَا يَزَالُ أَتْبَاعُهُمْ يُحَسِّنُونَ بِهِمُ الظَّنَّ وَيُظَنُّونَ أَنَّهُمْ يَبْنُونَ دِينَ اللَّهِ ﷻ، وَتَرَاهُ يُؤَيِّدُ بَاطِلَهُ إِمَّا بِحَدِيثٍ مَكْذُوبٍ، أَوْ آيَةٍ يَحْرِفُهَا عَنْ مَعْنَاهَا، أَوْ قِصَّةٍ يَخْتَرِعُهَا أَوْ رُؤْيَا مُنَاطِيَّةٍ يَدَّعِيهَا، أَوْ تَجَرِبَةٍ يَزْعُمُهَا.. أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ مِنَ الْمَسَالِكِ الْمَتَّبَعَةِ عِنْدَ هَؤُلَاءِ فِي نَشْرِ مَا عِنْدَهُمْ مِنْ خِرَافَةٍ وَبَاطِلٍ.

(١) سورة: النحل، الآية (٤٣)، والأنبياء، الآية (٧).

(٢) أخرجه أبو داود (ح ٤٢٥٢)، والترمذي (ح ٢٢٢٩) من حديث ثوبان، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٥٨٢).

ولضعف البصيرة في الناس والفهم والدراية يروج عليهم كلام أمثال هؤلاء.
ولهذا عقد المصنّف رَحِمَهُ اللهُ هذا الأصل نُصْحًا للناس وبيانًا لهذا الأمر أن يُعرف الفقه والفُقهَاء،
والعلم والعلماء.

العلم والفقه أي النافع الذي أمر الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- به فليس كل كلام يُلقَى فقه، وليس كل بيان يُبين فقه وعلم، العلم والفقه الذي مدح الله ﷺ أهلَه ورَغِبَ النَّبِيُّ ﷺ في تحصيله وتلقّيه، هو العلم الشرعي المستمد من كتاب الله ﷺ وسنة نبيه ﷺ.

العلم قال الله قال رسوله

هذا هو العلم على ضوء فهم الصحابة الكرام ومن اتبعهم بإحسان، هذا هو العلم الذي امتدحه الله وهذا هو ميراث الأنبياء، كما قال -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: «فَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يورَثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا وَإِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحِطِّ وَافِرٍ»^(١) وهذا هو العلم الذي شهد -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- لصاحبه بالخيرية «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»^(٢)، «خيركم من تعلّم القرآن وعلمه»^(٣)، «من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له به طريقًا إلى الجنة»، وإنَّ الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع كلُّ الأحاديث التي وردت في التَّغْيِيبِ في العلم والحثُّ عليه، المراد بها العلم الشرعي، والمراد بالفقه: الفقه الذي يُستمدُّ من كتاب الله ﷺ سواء أريد بالفقه الفقه الأكبر، الذي هو العقيدة وأصول الدين، أو الفقه الأصغر الذي هو الأحكام والفروع، فهذه كلها فقه في دين الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-، ولا يكون هذا الفقه صالحًا سديدًا، إلَّا إذا كان مستمدًّا من كتاب الله ﷺ وسنة رسوله -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- على ضوء فهم السلف الصالح رحمهم الله.

وعندما لا تُمَيِّز هذه الحقيقة تُخلط أمور في هذا الباب، وتُسَمَّى علمًا فتُضِرُّ بالناس غاية الضرر ومن أعظم ذلك خطرًا على الناس وأدهاء عليهم: علم الكلام، علم الكلام الذي بنى عليه أربابُه فهم دين الله ﷺ بمعزل عن كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وصار الواحد منهم في تقريره لأمر دينه وأمور الاعتقاد، يذكر عقليّات وتصورات وفلسفات ما أنزل الله بها من سلطان، فإذا أراد أن يقرّر عقيدة قال: بما أنّه كذا، إذا يكون كذا ولو كان كذا لكان كذا، ويمضي بهذا الأسلوب في تقرير الاعتقاد يمضي متحدثًا بهذا الأسلوب وبين يديه كتاب الله ناطق بالحق، وبين يديه سنة رسول الله ﷺ شاهدة بالحق ودالة عليه فيعرض عنهما، ثم يقحم عقله القاصر، يقحم عقله القاصر وتصوراته الضعيفة فيبدأ يقرّر في الاعتقاد ما

(١) أخرجه أبو داود (ح ٣٦٤١)، والترمذي (ح ٢٦٨٢)، وابن ماجه (ح ٢٢٣) من حديث أبي الدرداء، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ.

(٢) أخرجه البخاري رَحِمَهُ اللهُ (ح ٧١)، ومسلم رَحِمَهُ اللهُ (ح ١٠٣٧) من حديث معاوية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (ح ٥٠٢٧، ٥٠٢٨) من حديث عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وأخرجه غيره من أصحاب السنن.

لا أساس له ولا أصل عليه، خوَّص في الله وفي دين الله وفي شرع الله بلا علم، وهذا من أعظم المحرمات وأكبر الآثام ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ (١)، ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (٢).

وبات علم التوحيد الذي هو أعظم العلوم وأجلُّها يُسمَّى بسبب تعلق هؤلاء بعلم الكلام يسمَّى علم الكلام، يسمَّى علم التوحيد عندهم أو علم العقيدة يسمَّى علم الكلام.

ويبدأ هؤلاء في تقرير الاعتقاد على الكلام الباطل والخوض في دين الله ﷻ بالعقليات والآراء، وقد قال ابن أبي العزِّ رحمه الله في شرحه للعقيدة الطحاوية: (كيف يُرام الوصول إلى علم الأصول بغير ما جاء به الرسول -عليه الصلاة والسلام-؟! أي أن هذا مُحال لا يمكن، لا يمكن للإنسان أن يصل إلى الأصول الصحيحة والعقيدة السليمة، دون أن يتلقَّى ذلك عن رسول الله -عليه الصلاة والسلام-، ولا يمكن أيضًا أن يعرف العبادة الصحيحة إلَّا بالتلقِّي عن الرسول -عليه الصلاة والسلام-، ولهذا قال العلماء: (كلُّ طريق إلى الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- مسدودٌ إلَّا من طريق الرسول عليه الصلاة والسلام) لا يمكن للإنسان أن يصل إلى هدى وإلى حقٍّ وإلى علم نافع وإلى سديد قول وصالح عمل إلَّا بإتباع الرسول ﷺ وجعله أسوة وقدوة له في عقيدته وعبادته وعمله ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (٣)، ومن فارق ما جاء به الرسول -عليه الصلاة والسلام- ضلَّ، ولهذا كان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كثيرًا ما يقول: (من فارق الدليل ضلَّ السَّيْل) ولا دليل إلَّا بما جاء به الرسول ﷺ، ويقول رحمه الله: (كلُّ يُستدلُّ لقوله لا به إلَّا الله ورسوله) كلام الله وكلام رسوله -عليه الصلاة والسلام- هو الحجة، وكلام غير الله وكلام غير الرسول -عليه الصلاة والسلام- ليس حجة؛ وإنَّما تطلب له الحجة إن وجدت في كتاب الله أو سنة رسوله -عليه الصلاة والسلام- فإن وجدت وإلَّا رُدَّ عليه قوله، وهذا معنى قول مالك رحمه الله: (كلُّ يؤخذ من قوله ويترك إلَّا صاحب هذا القبر) يعني رسول الله ﷺ.

وكما يشير المصنِّف رحمه الله هنا، المُصيبة على الناس في هذا الباب عظمت لأنَّهم أصبحوا لا يميِّزون بين دعاة الحقِّ وأدعياء الباطل، بل أصبح بعض العوام يميل في تلقَّيه وفي استفتائه إلى من يراه يفتيه بما يريد، أو من يراه يفتيه على هواه وتجده يتنقل بين من يفتون واحد تلو الآخر إلى أن يقع على شخص يرخِّص له فيما يريد، ليس منشوده الحقِّ ومطلوبه دين الله ﷻ وإنَّما منشوده الأمر الذي اتَّجه للسؤال عنه

(١) سورة: البقرة، الآية (١٦٩).

(٢) سورة: الإسراء، الآية (٣٦).

(٣) سورة: الأحزاب، الآية (٢١).

أو طلب الرخصة فيه، وهذه من المصائب العظيمة أصبح في الناس من لا يميز بين الفقه والفقهاء، والعلم والعلماء، وأصبح الدّاعية للبدعة الذي لا يُسمع منه تقرير الاعتقاد الصحيح والدّين القويم على ضوء الدليل المستمد من كتاب الله وسنة رسوله -عليه الصّلاة والسّلام- يعدّ عند بعض الناس عالماً وفقياً، وأصبح أيضاً عكس ذلك العالم المنضبط بضوابط الكتاب والسّنة المتقيّد بما جاء في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ يرمى بأوصاف ينفر بها الناس عنه، والأوصاف التي يرمون بها العلماء الذين هم على السّنة وعلى التلقّي من كتاب الله ﷺ كثيرة جدّاً في القديم والحديث، قال: (بيان العلم والعلماء، والفقه والفقهاء، وبيان من تشبّه بهم، وليس منهم) يشير هنا إلى أنّ في الناس من يتشبه بأهل العلم ويتظاهر بالعلم وهو في الواقع يدسّ البدع وينشر الباطل والخرافة بين الناس، لا ينشر دين الله ﷺ وإنّما ينشر خرافة باطلة وبدعاً ضالّة، هذا الذي عنده وهذه بضاعته؛ لكنّه يتظاهر بمظهر العلم والفقه والبصيرة في دين الله فيغرّ العوام ويخدع الجهال.

قال: (وقد بين الله ﷻ هذا الأصل في أوّل سورة البقرة من قوله: ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ ^(١)، إلى قوله: ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ^(٢).

مشيراً إلى أنّ في هذا السّياق بياناً لهذه الحقيقة وإيضاحاً إلى أنّ العالم الحقّ شأنه ذكر نعمة الله عليه وفضله عليه وشكره لنعمة الله -تبارك وتعالى- وعدم لبسه الحقّ بالباطل، وعدم كتمانها للحقّ، ومحافظته على ما أمر به من إقام الصّلاة وإيتاء الزّكاة، والبعد عن أن يكون شأنه شأن من يدعو إلى الشّيء ولا يعمل به ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ ^(٣) فهذا السّياق المبارك عندما يتأمّله المسلم وطالب العلم يجد فيه ضوابط يميز بها بين العلماء والأدعياء، فالعلماء لهم صفاتهم، والأدعياء لهم صفاتهم وكلّها مبينة في هذا السّياق وفي مواضع أيضاً أخرى من كتاب الله ﷻ تكشف هذا الأمر وتجلّي هذه الحقيقة.

قال: (ويزيده وضوحاً) يعني يزيد هذا الأمر وضوحاً وبياناً (ما صرّحت به السّنة في هذا من الكلام الكثير البين الواضح للعالميّ البليد) أي أنّ السّنة جاءت ببيان العلماء وصفات أهل العلم، ولو وقف طالب العلم على بعض الكتب المصنّفة في هذا الباب وبخاصّة كتاب (جامع بيان العلم وفضله) لابن عبد البر، لوجد فيه من السّنة ذكر فضل العلم وعلامات أهله وصفاتها في ضوء سنة الرسول الكريم -

(١) سورة: البقرة، الآية (٤٠).

(٢) سورة: البقرة، الآية (١٢٢).

(٣) سورة: البقرة، الآية (٤٤).

عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، فهو أمرٌ بَيِّنٌ في الكتاب والسَّنة غاية البيان، بَيِّنٌ كما قال المصنِّف: (بيَّنا واضحا للعامي البليد) ذكر في القرآن والسَّنة نصوص توضَّح من هم العلماء واضحة للعامي البليد؛ لكن المعرض والمتَّبِع لهواه ونحو هؤلاء تختلط عليهم الأمور وتلتبس إمَّا بسبب الجهل أو بسبب إتِّباع الأهواء.

قال (ثُمَّ صَارَ هَذَا أَغْرَبَ الْأَشْيَاءِ) صار هذا الأمر أغرب الأشياء يعني معرفة العلماء وعلاماتهم، والفقهاء وعلاماتهم، صار هذا أغرب الأشياء يعني أمره صار غريباً بين الناس لا يكاد يعرفه إلا القلائل منهم، والأمر الغريب الذي لا يعرفه إلا القلَّة من الناس.

(وَصَارَ الْعِلْمُ وَالْفِقْهُ هُوَ الْبِدْعُ وَالضَّلَالَاتُ)، (وصار العلم) أي العلم الصَّحيح المستمد من الكتاب والسَّنة هو البدع والضَّلالات، وأصبح في الناس كثيرون من ينكرون السنن ويسمونها بالبدع، وينكرون العقيدة الصَّحيحة المستمدة من الكتاب والسَّنة ويصفونها بالضلال وينكرون العبادات الثَّابتة عن الرِّسول -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- ويصفونها بالباطل، هذا معنى قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وَصَارَ الْعِلْمُ وَالْفِقْهُ هُوَ الْبِدْعُ وَالضَّلَالَاتُ) أي أنَّ هؤلاء أصبحوا يصفون العلم الصَّحيح والفقه الصَّحيح بأنَّه بدعة وضلال، وما هو العلم؟ العلم هو البدع التي يمارسونها ما أنزل الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- بها من سلطان (وَخِيَارُ مَا عِنْدَهُمْ) يعني أفضل شيء عند هؤلاء (لَبَسَ الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ)، (وَخِيَارُ مَا عِنْدَهُمْ لَبَسَ الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ) ولبس الحق بالباطل هذا أمر لا خير فيه، أمر لا خير فيه، أي خيرة في أن يلبس الحق بالباطل وتُخلط على الناس أمور وتُغيب عنهم الحقيقة النَّاصعة المأخوذة من الكتاب والسَّنة، فإذا كان هذا خيار ما عندهم، لبس الحق بالباطل، فمعنى ذلك أنَّ هؤلاء في ضياع تام، وإعراض تام عن كتاب الله ﷻ وسنة رسوله صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

قال: (وَخِيَارُ مَا عِنْدَهُمْ: لَبَسَ الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ ! وَصَارَ الْعِلْمُ الَّذِي فَرَضَهُ اللهُ عَلَى الْخَلْقِ وَمَدْحُهُ لَا يَتَفَوَّهُ بِهِ إِلَّا زَنْدِيقٌ أَوْ مَجْنُونٌ !) .

قوله: (لَا يَتَفَوَّهُ بِهِ إِلَّا زَنْدِيقٌ أَوْ مَجْنُونٌ !) أي بزعم هؤلاء، أي بزعم هؤلاء، فيصفون الذي يتفوه بالعلم الشرعي المستمد من كتاب الله ﷻ يصفونه بالجنون، وربَّما وصفوه بالزندقة، والزندقة مروق عن دين الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-، فيصفون المتمسك بدينه بأنَّه إمَّا به جنون أو يصفونه بأنَّه زنديق أو مارق أو نحو ذلك من الأوصاف، أسوأ بالمشرِّكين الذين وصفوا النَّبي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- بالسَّاحر والكاهن والمجنون والمفترى إلى غير ذلك من الأوصاف التي لقبوه بها ولُقِّبَ بنظائرها أتباعه المتمسكين بهديه السَّائرين على نهجه - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ -.

قال: (وَصَارَ مَنْ أَنْكَرَهُ وَعَادَاهُ وَجَدَ فِي التَّحْذِيرِ مِنْهُ، وَالنَّهْيِ عَنْهُ، هُوَ الْفَقِيهُ الْعَالِمُ !!)، (وَصَارَ مَنْ

أَنكَرُهُ وَعَادَاهُ) الضمير هنا يعود إلى العلم والفقه الصحيح المستمد من الكتاب والسنة، صار من أنكر العلم الصحيح وعادى الفقه الصحيح المستمد من الكتاب والسنة، وصنف في التحذير منه أي صنف في التحذير من السنن الصحيحة والفقه الصحيح والعلم الصحيح، وصنف في التحذير منه والنهي عنه، هو الفقيه العالم، وهذا موجود تُصنّف كتب في رد السنن والإشادة بالبدع وإحياء الضلالات، ويوصف أصحابها بالعلماء ويلقبون بالفقهاء، ورُبّما قيل في حقه: إمام، ورُبّما قيل: إمام الأئمة من قبل أتباعه من الغوغاء والجُهّال وهو ليس عنده إلّا نشر للخرافة إمّا نشر للقبورية، والتعلّق بالقبور بالكذب على رسول الله -عليه الصلاة والسلام- أو نشر الأحاديث الواهية الضعيفة أو تحريف الآيات عن معانيها أو حكاية القصص وذكر الرؤى والمنامات، ويكون الكتاب كلّ مبنّي على هذا الأمر ولا ترى فيه «لعنة الله على اليهود والنصارى اتّخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، «إن شرار الخلق عند الله الذين يتّخذون القبور مساجد» هذه الأحاديث الصحيحة لا تراها ترى إمّا آية يحرفونها عن معناها ويصرفونها عن مدلولها، مثل استشهاد هؤلاء وكل من كتب منهم في هذا الباب بقول الله -تعالى-: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾^(١).

هذا أمرٌ حكاه الله ﷻ عن أهل الغلبة وهم كفّار كما يدلّ على ذلك سياق الآيات في سورة الكهف فيستدلّون بفعل هؤلاء، ويتركون ما قاله النبي ﷺ قبل أن يموت بلحظات «لعنة الله على اليهود والنصارى اتّخذوا قبور أنبيائهم مساجد»^(٢) ولا يصحّ أن نقول: هذا شرع من قبلنا وشرع من قبلنا جاء بنسخه، لا يصحّ أن نقول هذا الكلام لماذا؟ لأنّه لو كان شرع لمن قبلنا أيسحّ أن يقول -عليه الصلاة والسلام-: «لعنة الله على اليهود والنصارى اتّخذوا قبور أنبيائهم مساجد» أيسحّ أن يقول ذلك؟ يلعنهم على أمر هو شرع عندهم، هذا لا يقال، فاتّخاذ القبور مساجد ليس شرعاً لمن قبلنا؛ بل هو باطل في أديان جميع الأنبياء، والآية ذكر لحال أهل الغلبة من غير المسلمين ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾^(٣)، السياق واضح وصف لحال غير المسلمين فيستدلّون بعمل أهل الغلبة في مساق ليس مساق مدح، بل مساق ذمّ ويتركون حديث رسول الله.

العامي المسكين إذا قال له واحد من هؤلاء الله يقول: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾^(٤)، هذا القرآن ناطق باتّخاذ القبور مساجد، هذا كتاب الله ناطق فكيف يقولون أنّه لا

(١) سورة: الكهف، الآية (٢١).

(٢) سبق تخريجه ص (٢٣).

(٣) سورة: الكهف، الآية (٢٠).

(٤) سورة: الكهف، الآية (٢١).

يجوز؟ العامي مسكين يقول له أيضا افتح سورة الكهف ويريه الآية في السورة يقول كيف يقال: إنه هذا حرام؟ العامي ما يدري، ثم يردف هذه الآية التي حرف معناها بحديث يُورده للعوام، أن الرسول ﷺ قال: (من اعتقد في قبر نفعه) مثلاً، أو أشياء من هذا القبيل يكذبونها ويفترونها، ثم يُردف بذلك بقصص قصّة فلان، وقصّة فلان ثم تُجمع في كتاب ويُعدُّ علماً ويُعدُّ مؤلفه عالم فقيه، وهو كَلَّه كذبٌ على الله وكذبٌ على رسوله وقول على الله بلا علم وتلفيق وتزوير وكتُم للحق ولَبَس للحق بالباطل وخلطُ للأمور، ويسمّي الكتاب كتاب علم ويسمّي مؤلفه عالم فقيه، والذين يكتبون من جمرة هذا الرجل العوام الجهّال، يغترون ويقعون في أنواع من الباطل، هذا مثال، قل في جميع أبواب الدين مثل هذا، عندما يتصدّر للناس دعاة الباطل ودعاة الضلال فيُفسدون في الناس بمثل هذه الطريقة.

فالمؤلف رَحِمَهُ اللهُ وضع هذا الأصل نُصحاً للناس حتّى لا يختلط على عوام المسلمين وعلى المبتدئين من طلبة العلم لا تختلط عليهم الأمور ويعرفون حقيقة الأمر.

الأصل الخامس

بَيَانُ اللَّهِ - سُبْحَانَهُ - لِلأُولِيَاءِ^(١)، وَتَفْرِيقُهُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُتَشَبِّهِينَ بِهِمْ مِنْ أَعْدَائِهِ^(٢) الْمُنَافِقِينَ وَالْفَجَّارِ؛ وَيَكْفِي فِي هَذَا آيَةٌ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾^(٣) الْآيَةُ، وَالْآيَةُ الَّتِي فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَتَّخِذُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾^(٤) الْآيَةُ، وَآيَةٌ فِي سُورَةِ يُنُوسَ وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿إِلَّا إِلَٰهَ الْوَلِيَاءِ اللَّهُ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٥) الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ^(٦).
ثُمَّ صَارَ الْأَمْرُ عِنْدَ أَكْثَرِ مَنْ يَدَّعِي الْعِلْمَ، وَأَنَّهُ مِنْ هُدَاةِ الْخَلْقِ، وَحُفَاطِ الشَّرْعِ، إِلَى أَنَّ الْأُولِيَاءَ لَا بُدَّ فِيهِمْ مِنْ تَرْكِ اتِّبَاعِ الرَّسُولِ^(٧)، وَمَنْ اتَّبَعَهُ^(٨) فَلَيْسَ مِنْهُمْ! [وَلَا بُدَّ مِنْ تَرْكِ الْجِهَادِ، فَمَنْ جَاهَدَ فَلَيْسَ مِنْهُمْ! وَلَا بُدَّ مِنْ تَرْكِ الْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى! فَمَنْ تَقَيَّدَ بِالْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى، فَلَيْسَ مِنْهُمْ!]^(٩) يَا رَبَّنَا نَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ، إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ.

(١) في الجامع الفريد: (لأولياء الله).

(٢) في الجامع الفريد: (أعداء الله).

(٣) الآية (٣١).

(٤) الآية (٥٤).

(٥) في الجامع الفريد: (الرُّسُل).

(٦) في الجامع الفريد: (تبعهم).

(٧) سقطت من الجامع الفريد.

الشَّرْحُ

قال رَحِمَهُ اللهُ: (الأصل الخامس) وهذا أصل عظيم ومفيد جداً للمسلم، والناس بحاجة ماسة لفهمه والعلم به.

يقول رَحِمَهُ اللهُ: (بيان الله سبحانه لأوليائه الله وتفريقه بينهم وبين المتشبهين بهم من أعداء الله المنافقين والفجَّار)، هذا أصل مهم يجب على المسلم أن يفهمه في ضوء كتاب الله وسنة نبيه -عليه الصلاة والسلام-.

ولعلنا نلاحظ -معاشر الإخوة- الطريقة المباركة والنهج السديد الذي عليه هذا الإمام في توضيحه للأمور، لما أراد أن يذكر علامة العلماء وأمانة الفقهاء، أورد آيات وأشار إلى أحاديث تُعرف بها ومن خلالها علاماتهم، ولما أراد أن يبين علامات أولياء الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- أيضاً أورد آيات من كتاب الله ﷻ تُعرف من خلالها علاماتهم، منبهاً بذلك أن الحق وأهله ودُعَاة إنما يُعرفون من جهة دلالة كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

قال: (بيان الله سبحانه لأوليائه الله، وتفريقه بينهم وبين المتشبهين بهم من أعداء الله المنافقين والفجَّار) فأوليائه الله لهم علامات ذكرت في القرآن والسنة، وأوليائه الشيطان الذين يدعون أنهم أولياء الله أيضاً لهم علامات ذكرت في الكتاب والسنة، وقد صنف شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ مصنفاً عظيم النفع كبير الفائدة سماه (الفرقان بين أولياء الرحمن وأوليائه الشيطان)، هو كتاب عظيم جداً ذكر فيه ما يُمَيِّز به بين ولي الله وولي الشيطان، ومن لم يميز خدعه أولياء الشيطان وغرَّوه وصرَفوه عن دين الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

قال: (يكفي في هذا آية في سورة آل عمران وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾^(١) الآية، وآية في سورة المائدة وهي قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِمْ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُمْ﴾ الآية، وآية في سورة يونس وهي قول الله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ^(٣)).
يقول رَحِمَهُ اللهُ: يكفي أن تعرف الأولياء حقاً وصدقاً من خلال هذه الآيات الثلاث فقط ففيها كفاية لك في معرفة من هو الولي؟ وما هي علاماته؟

(١) سورة: آل عمران، الآية (٣١).

فالعلامة الأولى في قوله - تعالى - : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ ﴾^(١) :
الاتباع؛ اتباع النبي - عليه الصلاة والسلام - ، ولقد كان بعض أهل العلم يسمون هذه الآية، آية المحنة، أي أن من أراد أن يمتحن نفسه في صدق وقوة محبته لرسول الله ﷺ وقبل ذلك محبته لرب العالمين ليقس ذلك على ضوء الاتباع الذي عنده، فإنه كلما كان أعظم إتباعاً وتمسكاً بهدي الرسول ﷺ فإن هذا أمانة على صدق المحبة، وكلما ضعف فيه الإتيان فهذا أمانة على ضعفها، فكيف يكون ولياً وهو لا يتبع الرسول عليه الصلاة والسلام؟

في بعض البلدان يجلس من يُزعم ويدعى أنه ولي متكئاً على سارية في المسجد وتقام الصلاة ويصلي الناس وهو متكئ ما يصلي معهم، أين الولاية؟ أين الولاية بدون الصلاة؟ أو لا يكون أيضاً في المسجد يكون في الشارع جالساً في مكان وتقام الصلاة وينادي لها ولا يقوم يصلي، ويدعى أنه ولي من أولياء الله! أين الصلاة التي فرضها الله على عباده؟

يقول أحد الأشخاص: مررت في بلد ما على مكان وإذا برجل كلما مررت جالس ما يقوم، وليس به علة، جالس في مكان ولا يقوم، حتى أوقات الصلوات، فسألت عنه قلت: من هذا؟ قالوا: سبحان الله ما تعرفه!! هذا ولي من أولياء الله، كل الناس يشهدون له بالولاية، هذا نذر ألا يقوم من هذا المكان أبداً، فقط يجلس في هذا المكان يصلي على النبي ﷺ، الصلاة المفروضة التي افترضها الله على عباده، وأمر بها ودعا إلى إقامتها في المساجد، ترك ويجلس في هذا المكان لا يقوم منه، أين الولاية بدون الاتباع؟!
يغتر العوام عندما تؤتى لهم بمثل هذه الحكايات، يغتر العوام ويظن فعلاً أن هذا ولي من أولياء الله، فولّي الله المتبع علامته الاتباع وأعظم ما يكون فيه فعل الفرائض إذا ضيع الفرائض ليس من أولياء الله، لا تحتاج هذه إلى مفاصلة أو.. واضحة إذا ضيع الفرائض فهو ليس من أولياء الله، من ضيع الفرائض فهو لما سواها أضيع، فالولاية لابد فيها من فعل الفرائض، ولهذا قال العلماء: الولاية درجتان، أولياء الله على درجتين بينت الدرجتان في قوله - عليه الصلاة والسلام - عن الله - تعالى - في الحديث القدسي: «من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه» فالأولياء على درجتين.

درجة فعل الفرائض الذي يحافظ على الفرائض ويترك المحرمات هذا من أولياء الله، وهي درجة في الولاية.

أعلى منها درجة من يفعل الفرائض ويترك المحرمات وينافس في فعل الرغائب والمستحبات وهذا

(١) سورة: آل عمران، الآية (٣١).

معنى قوله: «ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، وقدمه التي يمشي عليها، ولئن سألتني ل أعطيته، ولئن استعاذ بي لأعيذنه»^(١) هذه علامته يفعل الفرائض.

أما شخص يجلس ولا يصلي، ثم يقول من حوله: هذا ما تعرفه؟ هذا ولي من أولياء الله ثم يقولون أيضًا لو كان عندك مشكلة اجلس عنده بدون ما تكلمه، هو يعرف مشكلتك، وهو يلقي في قلبك الدواء لها هذا ولي العوام مساكين، العوام مساكين يُخدعون بمثل هذا الكلام.

ثم إذا قيل للعوام: فلان جرب، وفلان جرب، وفلانة جربت ومثل هذه السوالف، لا تسأل عن ركضهم على مثل هذه زرافات ووحدا، وهذا ضياع، وأصبحت المقياس في الولاية مثل هذه المقياس الفاسدة، أما المقياس التي في الكتاب والسنة لا تجدهم يعرجون عليها ولا يقفون عندها. فإذا علامة الولي الاتباع، الاتباع والإقتداء بالرسول -عليه الصلاة والسلام- وبسنته.

ومن أعظم ما يكون في ذلك الصلاة، كان بعض المتقدمين إذا أراد أن يذهب إلى مكان ليتلقى العلم عن شخص يذهب وينظر في صلاته، وإذا وجده من أهلها والمحافظين عليها اطمأن لعلمه، وإلا إن كان مضيعًا للصلاة فهو لما سواها أضيع، ولا حظ في الإسلام لمن ضيع الصلاة قال بعض السلف: (من أراد أن يعرف وزن الإسلام عنده، فلينظر إلى وزن الصلاة) من أراد أن يعرف وزن الإسلام، وقيمة الإسلام، ومكانة الإسلام عنده، فلينظر إلى الصلاة، الصلاة ميزان لإسلام الشخص إذا كان شخص لا يصلي ولا يشهد الصلاة مع الجماعة هذا ولي من أولياء الشيطان، يجلس في قارة الطريق وليس به علّه وليس به مرض لم يمنعه مرض ولم يمنعه عذر، إلا مثل هذه الدعاوى الباطلة هذا ليس من أولياء الله، والنبي -عليه الصلاة والسلام- في آخر حياته في مرضه كشف الستر ورأى الصحابة صفوفًا يؤمهم أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) فتهلل وجهه فرحًا -عليه الصلاة والسلام- من هذا المنظر العظيم تهلل وجهه فرحًا والناس يراهم صفوفًا يصلون في المسجد خلف خير أصحابه أبو بكر (رضي الله عنه) فتهلل وجهه فرحًا، هذه الولاية، الولاية في الصلاة، وفي عبادة الله، وإتباع الرسول -عليه الصلاة والسلام- هذه علامة واضحة بُيئت في القرآن لا تحتاج إلى بيان، لكن مع ذلك الأمر التبس على كثير من العوام والجهال.

وأصبح بعض العوام لا ينظر إلى هذه العلامة ليقيس وإنما ينظر إلى طول العمامة، لا ينظر إلى هذه العلامة، وإنما ينظر في معرفة الولاية إلى طول العمامة أو الزي والشكل، وأصبح بعضهم الولاية نوع من اللباس ونوع من الزي معين، ونوع من الحركات معينة تفعل إذا وجدت أصبحت مقياسًا ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ

(١) أخرجه البخاري (ح ٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه).

تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴿١﴾، هذه لا تقاس بها، هذا الميزان الواضح لا يقاس به ولا يُمَيِّز من خلاله من هم أولياء الله.

ثم كذلك الآية الثانية ﴿يَتَّخِذُ الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ ﴿٢﴾، ذكر لهم أربع علامات أدلة على المؤمنين؛ يعني في قلوبهم رحمة للمؤمنين ومحبة للخير لهم ونصح ودعاء وتعاون معهم على الخير، ﴿أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ قلوبهم فيها عزة ومَنعة وفيها أيضًا بغض وكراهية للكفار وأعداء دين الله - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - وفيهم أيضًا الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - ونصرة دينه، وفيهم أيضًا أنهم لا يخافون في الله لومة لائم في بيان الحق وإيضاحه والدعوة إليه ونشره.

مثل هذه إذا وجدت هذه علامات، علامات على أن الإنسان من أولياء الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

ثم ختم بعلامة أخيرة في قوله - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - : ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿٦٢﴾ ﴿٣﴾، ثم ذكر علامتهم - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - قال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ ﴿٦٣﴾ ﴿٤﴾، العلماء - رحمهم الله - يقولون: إذا جمع بين الإيمان وبين التقوى في آية واحدة أو في نص واحد، فيكون الإيمان: يتناول العقائد الصحيحة وفعل الأوامر، والتقوى: البعد عن العقائد الزائفة الباطلة وترك النواهي، فالإيمان اعتقاد الأمر الصحيح والعمل بالطاعات التي دل عليها الكتاب والسنة، والتقوى البعد عن العقائد الباطلة واتقاؤها وأيضًا اتقاء المحرمات وما نهى الله عنه - تَبَارَكَ وَتَعَالَى -، ويأتي في مقدمة ذلك الشرك بالله.

فذكر لهم علامتان: الإيمان والتقوى، الإيمان والتقوى، ولهذا من كان مؤمنًا تقياً كان لله ولياً، والولاية تكون بالإيمان والتقوى، هذا أمر واضح في كتاب الله، وأصبح من يفعل نقيض هذين الأمرين تدعى له الولاية.

في باب فعل الأوامر تجد في أقوام علامتهم عند أصحابهم ترك الأوامر ويعرفون عند أصحابهم بالأولياء، تجده لا يصلي، تجده أيضًا لا يطوف ويعلم ذلك، يعلن ذلك لا يطوف، يقول: الأولياء لا يطوفون بالبيت يعلن ذلك، يقول الأولياء: لا يطوفون بالبيت، البيت هو الذي يطوف بهم، وهذا ليس كلامًا يقال هكذا، هذا كلام موجود في كتب، هذا كلام موجود في كتب وينشر يقول: الولي هو الذي

(١) سورة: آل عمران، الآية (٣١).

(٢) سورة: المائدة، الآية (٥٤).

(٣) سورة: يونس، الآية (٦٢).

(٤) سورة: يونس، الآية (٦٣).

يطوف به البيت، ليس هو يذهب إلى البيت يطوف به.

وقد حدثت عن شخص أنه جاء ووصل إلى مكة ووقف ما طاف وقال: لا الأولياء هم الذين يطوف بهم البيت، وإمام الأولياء - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - كم مرة طاف بالبيت؟ حجّ واعتمر أربع مرّات وطاف بالبيت طوافا متكرّرا وهو إمام الأولياء - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -، ثم يدّعي هؤلاء أن الولي لا يطوف بالبيت وأحقّيته ومكانته أن البيت يطوف به.

حتّى إنّه في أحد كتب الفقه، الفقه عقدت مسألة في كتاب الصَّلَاة مبنية على خرافة هؤلاء، عُقدت مسألة في كتاب الصَّلَاة إذا ذهب الكعبة تطوف بالأولياء إلى أين يصليّ الناس، هذه مسألة فقهية! قال صاحب الكتاب: اختلف أهل العلم في هذه المسألة على قولين:

قال بعض العلماء: يصلّون إلى الكعبة باعتبار الأصل وباعتبار الناس لا يستطيعون معرفة أين ذهبت الكعبة، إذا حضر وقت الصَّلَاة وفرض أن الكعبة ذهبت إلى الهند، أيّش يدريهم الناس أن الكعبة في الهند، أو في أفريقيا فقال: لا.. يصلّون إلى مكان الكعبة باعتبار الأصل ولعدم التمكن، هذا قول. وقال القول الآخر قال: لا.. لا بد أن يتحرّى الناس أين ذهبت الكعبة، لا بد أن يتحرّى أين ذهبت الكعبة ويستقبلونها.

هذا بحث في أحد الكتب، وفي كتب تروج عند العوام وفيها مثل هذه الخرافات تنشر على أنّها ما هي؟ علامة للأولياء، لا صلاة ولا طواف ولا عبادة ويدّعي فيه أنّه ماذا؟ يدّعي فيه أنّه ولي من أولياء الله، وهو وليّ للشيطان بلا شك ولا ريب، إيه والله وليّ للشيطان ليس وليّا للرحمن وما كانوا أولياءه، أين تكون الولاية في مثل هذا الضياع والباطل.

وأيضا جانب التقوى لا تراها فيهم، وأنا أتحدث عن غلاة هؤلاء لا تراها فيه تراه يمارس بعض المحرّمات باسم ماذا باسم الولاية، يمارس بعض المحرّمات الصريحة الواضحة البيّنة كقوله -تعالى- ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ﴾^(١)، يمارسه باسم الولاية.

وقد قرأت في بعض الكتب القديمة لهؤلاء وحدثني بعض المهتدين من هؤلاء بما أذكره لكم الآن أن المرید يأتي إلى شيخ الطريقة المزعوم أنّه ولي، يأتي المرید إليه في ليلة زواجه، ويأتي بزوجه بكرا إلى شيخه ويتوسّل إليه ويتذلّل بين يديه أن يتكرّم بافتضاض بكارتها ثمّ يخلو بها ويفتض بكارتها من أجل البركة، ثم تخرج من عنده ويقبل هذا المرید قديمي شيخه شكرا له على هذا الإحسان، وربما أعطاه أيضا جزيل مال على إحسانه له، هذا يمارس باسم ماذا؟ باسم الولاية زنا والعياذ بالله وفواحش، وأمور

(١) سورة: الإسراء، الآية (٣٢).

منكرة تمارس باسم الولاية، هؤلاء أولياء الشيطان، إي والله ليسوا أولياء الله ﴿أَلَا إِنَّكَ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾^(١)، من كان مؤمناً تقياً كان لله ولياً.

فلما اختلطت الأمور على الناس أصبحت هذه العلامة غير واضحة عندهم، وأصبحت العلامة عندهم خرافات بُثَّت وضلالات نشرت بين الناس وأصبحت هي المقياس، ولهذا قال المصنّف: (ثم صار الأمر عند أكثر من يدعي العلم، وأنه من هُداة الخلق، وحُفَظَ الشَّرْع إلى أن الأولياء لا بدّ فيهم من ترك إتِّباع الرّسول) يعني أصبحت العلامة للولي ما هي؟ ترك الاتِّباع، ترك الاتِّباع ترك الدِّين ترك الشَّرْع هذه العلامة مثل ما مثَّلْتُ لكم ببعض الأمثلة، (ومن تبعهم فليس منهم) يعني من تبع الأنبياء وسار على منهاجهم لا يكون منهم إلّا بترك الاتِّباع، هكذا فُهِمَت الأمور (ولا بدّ من ترك الجهاد، فمن جاهد فليس منهم، ولا بدّ من ترك الإيمان، والتَّقوى فمن تعهّد بالإيمان والتَّقوى، فليس منهم) هذه المقاييس التي في الآية تركها هو الولاية أصبح والعمل بها ليس في الولاية شيء قُلبت الأمور، ولهذا دعا المصنّف بهذه الدَّعوة قال: (يا ربَّنَا نسألك العفو والعافية، إِنَّكَ سميع الدُّعاء).



(١) سورة: يونس، الآية (٦٢-٦٣).

الأصل السادس

رَدُّ الشُّبْهَةِ^(١) الَّتِي وَضَعَهَا الشَّيْطَانُ، فِي تَرْكِ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ، وَاتِّبَاعِ الْآرَاءِ وَالْأَهْوَاءِ الْمُتَفَرِّقَةِ الْمُخْتَلِفَةِ؛ وَهِيَ^(٢) أَنَّ الْقُرْآنَ وَالسُّنَّةَ لَا يَعْرِفُهُمَا إِلَّا الْمُجْتَهِدُ الْمُطْلَقُ؛ وَالْمُجْتَهِدُ هُوَ: الْمُوصُوفُ بِكَذَا وَكَذَا، أَوْ صَافًا لَعَلَّهَا لَا تُوجَدُ تَامَّةً فِي أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ!

فَإِنْ لَمْ يَكُنِ الْإِنْسَانُ كَذَلِكَ فَلْيُعْرَضْ عَنْهُمَا فَرَضًا حَتْمًا لَا شَكَّ وَلَا إِشْكَالَ فِيهِ؛ وَمَنْ طَلَبَ الْهُدَى مِنْهُمَا فَهُوَ إِمَّا زَنْدِيقٌ أَوْ مَجْنُونٌ، لِأَجْلِ صُعُوبَةِ فَهْمِهِمَا!! فَسُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ: [كَمْ بَيْنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ شَرْعًا وَقَدَرًا، خَلْقًا وَأَمْرًا فِي رَدِّ^(٣) هَذِهِ الشُّبْهَةِ الْمَلْعُونَةِ مِنْ وَجْهِ شَتَّى، بَلَغَتْ إِلَى حَدِّ^(٤) الضَّرُورِيَّاتِ الْعَامَّةِ: ﴿لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٥)، ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٦) إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُّقْمَحُونَ^(٧) وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ^(٨) وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنْذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ^(٩) إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ^(١٠)].

[آخِرُهُ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّم تَسْلِيمًا كَثِيرًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ].^(١١)

(١) في الجامع الفريد: (السُّنَّة).

(٢) في الجامع الفريد زيادة: (أي: السُّنَّة التي وضعها الشَّيْطَانُ، وهي).

(٣) سقطت من الجامع الفريد، وفي مكانها: (والأمر يرد).

(٤) في الجامع الفريد: (أمر).

(٥) سورة: الأعراف، الآية (١٨٧).

(٦) سورة: يس.

(٧) زيادة من الجامع الفريد.

الشرح

قال رحمه الله (الأصل السادس: ردُّ الشبهة التي وضعها الشيطان، في ترك القرآن والسنة، وإتباع الآراء والأهواء المتفرقة المختلفة) فالشيطان وضع لأهل الأهواء وأرباب الباطل شبهة صدّتهم عن كتاب الله وعن سنة رسوله -عليه الصلاة والسلام- وأصبح هؤلاء يروجونها بين الناس، وكانت النتيجة إعراض هؤلاء في التلقي والأخذ عن الكتاب والسنة، وأصبح هؤلاء يروجونها بين الناس وكانت النتيجة إعراض هؤلاء في التلقي والأخذ عن الكتاب والسنة معرضين عن الكتاب والسنة، وأصبحوا يأخذون عن دعاة الباطل وما يوجههم إليه أئمة الضلال.

وضع لهم شبهة، شبهة خبيثة قال: أولاً: مقدّمة أولى: لا يقرأ القرآن ولا يتدبّر إلا مجتهد. الأمر الثاني لا يكون الإنسان مجتهداً إلا بأن يكون موصوفاً بكذا وكذا وكذا صفات كثيرة قال المصنف: (لا تكاد توجد تامّة في أبي بكر وعمر). أمر آخر يقولون: لا يوجد في زماننا مجتهدين.

هذه المقدّمات تخلص منها بنتيجة ما هي؟ قول الله ﷻ: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾^(١)، ألغى بهذه المقدّمات، وأصبحوا لا يتدبّرون القرآن، ويقرأون القرآن فقط للبركة بدون محاولة لفهمه؛ بل بعضهم ينبّه يقول: انتبه وأنت تقرأ لا تحاول أن تفهم، اقرأ هكذا فقط وإياك أن تفهم شيئاً منه؛ لأنك إن فهمت شيئاً من القرآن على دينك خطر، يخشى على دينك أن ينحرف دينك؛ لكن هذا كتاب تقرأه للبركة، تبرّك بقراءته وحاول أن تقرأه مثل قراءة الأعجمي للقرآن، أمّا أن تفهم شيئاً منه هذا يخشى على دينك منه؛ بل بعضهم صرّح بأن القرآن فيه ظواهر كُفريّة أشياء تظهر منه كُفريّة يخشى على الناس منها؛ لكن لا بدّ لنا من قراءته للتبرّك لأنّه كتاب مطالبون بقراءته، فنقرأه للتبرّك أمّا للفهم وللتدبّر إياك وهذا.. احذر! فيصبح من يقرأ القرآن منهم يقرأه لمجرد التبرّك.

وإذا قيل له: الله ﷻ نهى عن الشرك والدليل قوله -تعالى- كذا، ونهى عن كذا والدليل قوله... يقول: لا، لا تتكلّم بهذا هذا للمجتهدين، هذا لأهل الاجتهاد والعلماء -رحمهم الله- يقولون: الذي جاء في

(١) سورة: النساء، الآية (٨٢).

القرآن، منه أمور كثيرة واضحة لكل أحد، الآن لما يقول الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾^(١)، هذه الكلمة واضحة أو غير واضحة أو تحتاج إلى اجتهاد، ومعرفة بالمقدمات التي ذكروها؟! واضحة، شهر رمضان معروف عند كل أحد ﴿الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾^(٢)، نزول القرآن في رمضان أيضًا واضحة، هناك معاني ودقائق واستنباطات لأهل الاجتهاد أمّا أمور واضحة من الذي لا يفهم قول الله -تعالى-: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ﴾^(٣)، أو تحتاج إلى مجتهد مطلق! من الذي لا يفهم قول الله -تعالى-: ﴿وَأَن أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾^(٤)، الأمر بإقامة الصلاة ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾^(٥)، ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾^(٦)، تحتاج إلى مجتهد مطلق! حتى يفهم ما هو غُضُّ البصر! ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾^(٧) تحتاج إلى مجتهد مطلق حتى يفهم معنى غُضُّ البصر!!، هذه أمور واضحة والله ﷻ خاطب الناس بلسان عربي معلوم مفهوم يعلمون معناه، ففي القرآن أمور كثيرة واضحات لكل من يقرأ القرآن ممن يفهم اللسان العربي، وهناك أمور تحتاج إلى ماذا؟ ﴿لَعَلَّهُمُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾^(٨)، فيه أمور دقائق ومسائل تحتاج إلى فقه واستنباط هذه للمجتهدين، نعم، أمّا أن يُهجر القرآن ويترك تدبر القرآن ويقال: يُقرأ القرآن لمجرد البركة، هذه شبهة أردت بكثير من الناس، وأصبحوا مُعرضين عن القرآن وعن دلالاته منشغلين بالخرافة وبالأحاديث الموضوعة وبالقصص الواهية وبالحكايات وبالمنامات، وبينهم كتاب الله ﷻ وسنة نبيه - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - إلا أنهم عنهما معرضون نسأل الله العافية.

فهذه شبهة وضعها الشيطان لهم وأثرت في كثير منهم، وضعها الشيطان لهم من أجل ترك القرآن والسنة، وإتباع الآراء والأهواء المتفرقة المختلفة.

وإذا ترك أحد الدين والتدبر للقرآن الكريم وسنة النبي ﷺ من أين يأخذ الناس دينهم؟ إذا اقتنع الناس بهذه الشبهة من أين يؤخذ الدين؟ من العقلات ومن التجارب ومن الخرافات وهذا عين الضياع.

(١) سورة: البقرة، الآية (١٨٥).

(٢) سورة: البقرة، الآية (١٨٥).

(٣) سورة: الإسراء، الآية (٣٢).

(٤) سورة: البقرة، الآية (٤٣).

(٥) سورة: النساء، الآية (١٠٣).

(٦) سورة: النور، الآية (٣٠).

(٧) سورة: النور، الآية (٣١).

(٨) سورة: النساء، الآية (٨٢).

ما هي الشُّبهة؟ قال: (وهي أن القرآن والسُّنة لا يعرفهما إلا المجتهد المطلق) هذه المقدمة أولى.
المقدمة الثانية: (والمجتهد هو: الموصوف بكذا وكذا، أوصافاً لعلها لا توجد تامة في أبي بكر وعمر)
النتيجة ما هي؟ قول الله - تعالى - ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾^(١)، يلغى تماماً، بل إن قوله - تعالى - ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾، داخله تحت القاعدة هذه، ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾، يقول لك: القرآن لا يفهمه إلا مجتهد ولا يوجد في زماننا مجتهدين حتى هذه الآية لا تقرأها علينا ولا تطالبنا بفهمها، لأن القرآن فهمه من خصائص المجتهدين.

فتحت هذه الشُّبهة ضدَّ الناس عن دين الله قول الله - سبحانه وتعالى - ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾^(٢)، هل هذا على بابه يُردُّ إلى الله والرَّسول تحت هذه الشُّبهة، قال العلماء الرَّدُّ إلى الله الرَّدُّ إلى كتابه، والرَّدُّ إلى الرسول - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - الرَّدُّ إلى سنته.

فهل أصبح الرَّدُّ إليهما على ضوء هذه الشُّبهة؟ الجواب: لا، لا يردُّ إلى الكتاب ولا يردُّ إلى السُّنة لأن هذا لا يكون إلا على يدي مجتهد مطلق ويقولون: لا يوجد في زماننا المجتهد المطلق، فإذا لا يردُّ إلى الكتاب والسُّنة، لا يردُّ إلى الكتاب والسُّنة.

قال: (فإن لم يكن الإنسان كذلك) يعني بتلك الأوصاف للمجتهد (فليُعرض عَنْهُمَا فَرَضًا حَتْمًا لاشكَّ ولا إشكال فيه) هكذا يقولون وبعضهم بمثل هذه الألفاظ يهزُّ العوام، هذه الألفاظ يهزُّ العوام ويخلخل ثوابتهم (فَرَضًا حَتْمًا لاشكَّ ولا إشكال فيه) ألا تتدبر القرآن هل أنت عندك صفات المجتهدين؟ ما يجوز لك أن تتدبر، فقط اقرأ القرآن للبركة، يصدق العامي ويصبح لا يقرأ القرآن إلا لمجرد التبرُّك، والآيات التي فيها النهي عن الشُّرك والنهي عن الزنا كلها لا يأخذ منها ولا يفهم عنها ولا يتلقَّى بناءً على هذه الشُّبهة.

قال: (ومن طلب) يعني هذا كلامهم (ومن طالب الهدى منهما) أي من الكتاب والسُّنة (فهو إما زنديق) لأنه خاطر بدينه، ما هي المخاطرة بالدين؟ أن يفهم الدين من ظواهر الكتاب والسُّنة هذا (إما زنديق وإما مجنون) لماذا مجنون؟ (لأجل صعوبة فهمهما) فهذا مجنون لأنه يحاول أن يفهم من القرآن ما لا يمكن أن يفهم من القرآن، فهذا فيه نوع من الجنون، أو أنه إنسان زنديق مارق من الدين فمثل هذا الكلام عندما يروج على العوام كم يفعل بهم؟ وكم يبعدهم عن كتاب ربهم وسنة نبيهم - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ -؟

(١) سورة: النساء، الآية (٨٢).

(٢) سورة: النساء، الآية (٥٩).

والشيخ الإمام الشنقيطي رحمه الله في كتابه أضواء البيان عند قول الله - تعالى - في سورة محمد ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ (٢٤)، عند هذه الآية وقف وقفة مطولة عند هذا الموضوع وأورد هذه الشبهة وأجاب عليها إجابة موسعة جداً وأشار إلى بعض من قالها، وتوسّع توسّعاً طويلاً في الإجابة عنها حتى إنّها تصلح أن تكون رسالة مفردة من المعاني العظيمة والتوسّعات والتقريرات المفيدة التي ذكرها عند قوله - تعالى - : ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ (٢٤)، من تفسيره أضواء البيان.

ثم ختم بتسبيح الله وحمده، تسبيحه تنزيهه - تبارك وتعالى - عن مثل هذه الافتراءات وعن مثل هذا القول الباطل في كلامه وكلام رسوله - عليه الصلاة والسلام -، وحمده على نعمة التوفيق للخير والهداية له والسلامة من هذه الشرور؛ قال: (فسبحان الله وبحمده، كم بين الله سبحانه شرعاً وقدرًا، خلقاً وأمرًا في رد هذه الشبهة الملعونة من وجوه شتى، بلغت إلى حدّ الضروريات العامة: ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١٨٧) (١) يقول: هذه الشبهة زيفها مكشوف تماماً واضح في القرآن والسنة، وكم بين في القرآن والسنة من الدلائل على فساد هذا الكلام وبطلان هذا التقرير الفاسد بين بيانا إلى أن أصبح في حدّ الضروريات المعلومة من الدين بالضرورة، ولكن استطاع الشيطان بمكره ومصائده أن يقنع أناساً بها فأخذوا يروجونها ويصدّون بها الناس عن كلام الله وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام.

ثم ختم بهذه الآية الكريمة ﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٧) إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَنْفُسِهِمْ أَغْشَاءً فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (٨) وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (٩) وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠) إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (١١) ﴾ (٢).

قال: (آخره)، أي آخر هذه الرسالة (وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّم تَسْلِيمًا كَثِيرًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ).

ونسأل الله - جلّ وعلا - بأسمائه الحُسنى وصفاته العُلا أن يجزي هذا الإمام وغيره من أئمة المسلمين لقاء نصحتهم وبيانهم ودعوتهم وجهادهم ومجاهدتهم وبذلهم، وأن يجعل ذلك في موازين حسناتهم، وأن يلحقنا أجمعين بالصالحين من عباده، ونسأله - تبارك وتعالى - ألا يزيغ قلوبنا، اللهم لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمةً إنّك أنت الوهاب، اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا واجعل الحياة زيادةً لنا في كلّ خير، والموت راحةً لنا من كلّ شر.

(١) سورة: الأعراف، الآية (١٨٧).

(٢) سورة: يس، الآيات (٧-١١).

اللهم زيننا بزيانة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين غير ضالّين ولا مضلّين، اللهم اهدنا واهد بنا واهد لنا
ويسر الهدى لنا، وأشرح صدورنا للخير يا رب العالمين إنك سميع الدعاء وأنت أهل الرجاء وأنت
حسبنا ونعم الوكيل.

[أسئلة وأجوبة]

سؤال (١): ما تعليقكم على قول بعضهم: (إنَّ علم المنطق يصحَّح الفهم وبه يستقيم التفكير)، وقول بعضهم: (إذا بارزونى بعلم الورق برزت عليهم بعلم الخرق)؟

الجواب: هذا كله من كلام أهل الضلال.

الكلمة الأولى ينادي بها علماء الكلام.

والكلمة الثانية ينادي بها علماء التصوف أو أهل التصوف.

الأولى ينادي بها علماء الكلام في مدح المنطق والثناء عليه، والمنطق كما وصفه من خبره وعرفه وعرف نتائجه وآثاره، قالوا عنه: إنَّه علم وعر، وصفوه بأنَّه كالحم جمل غث على رأس جبل وعر لا سمين فينتقل ولا سهل فيرتقى، يعني الجبل صعب واللحم غث، إذا تكبَّد الإنسان وصعد الجبل بوعورته اللحم الذي ينقله، ما هو؟ لحم غث والطريق إليه أيضا وعر.

فهذه الصفة للمنطق.

وقالوا: إنَّه علم لا يحتاج إليه الذكي ولا ينتفع به البليد.

والعلم في قال الله قال رسوله ﷺ.

ومن خاضوا في هذا العلم - علم المنطق - وتعمَّقوا فيه لم يحصِّلوا منه إلَّا الحيرة والشك.

وأحدهم كان يقول في آخر حياته: يا ويلي إن لم يتداركني الله برحمته، وها أنا أموت على عقائد عجائز نيسابور. يعني علم الكلام الذي أمضيت فيه حياتي لم أصل منه إلى عقيدة صحيحة، ويعلن أنَّه على عقيدة العجائز نيسابور اللاتي هنَّ على الفطرة. أمَّا العلم الذي درسه في حياته إلى أن قارب أن يموت يعلن أنَّه ما حصَّل شيئا.

ويقول أحد المشتغلين بالمنطق يصف نفسه يقول: أضع الملحفة على وجهي على فراشي للنوم، يقول: فأعرض في ذهني أدلة هؤلاء وأدلة هؤلاء ويأتي عليَّ الصُّبح وما فهمت شيئا.

هذا الضياع، لو أنَّه قرأ آية وتفكَّر فيها لهدي ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾^(١) فعلم المنطق علم لا يحتاج إليه الذكي ولا ينتفع به البليد.

والمقولة الثانية: (إذا بارزوننا بالورق المقصود بالورق القرآن والسُّنة، كلام الله وكلام رسوله لأنَّ هذه مقصودة القرآن في ورق مكتوب والسُّنة أيضا في أوراق مكتوبة، صحيح البخاري وصحيح مسلم وسنن النسائي أوراق مكتوب فيها الأحاديث.

(١) سورة: الإسراء، الآية (٠٩).

فيقول: (إذا احتجُّوا علينا بالورق احتججنا عليهم بالخرق) والخرق هذه خرافة عند الصُوفيَّة يُلبس الشيخ تلميذه الخرقه وإذا ألبسه الخرقه بزعم بعضهم أنَّه يصبح معصوماً، وبعضهم لا يقول معصوم وإنما يقول: الوليُّ محفوظ يعني محفوظ من الخطأ، إذا ألبس الخرقه فكلُّ ما يقوله حقٌّ، لأنه لبس الخرقه فثبت له الحفظ، فما يحتاج إلى آية وحديث وهذه الأمور، لا نحتجُّ عليهم بالخرق؛ لأنَّه إذا لبس الخرقه كلُّ ما يقوله حقٌّ، فما يحتاج أن يُستدلَّ لقوله؛ لأنَّ قوله أصبح هو الحجَّة وهو الدليل، فيقول: إذا احتجُّوا علينا بالورق احتججنا عليهم بالخرق.

مثلاً قول بعضهم: أنتم تأخذون دينكم ميّناً عن ميّت حدثنا فلان عن فلان. أمّا نحن فنأخذ ديننا عن الحيِّ الذي لا يموت، يقول واحد منّا: حدّثني قلبي عن ربِّي، فهذه كلها من خرافات هؤلاء ودعاواهم الباطلة التي ما أنزل الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- بها من سلطان.

سؤال (٢): هل يجوز لي أن أؤجّر عقاراً للبنك؟

الجواب: إذا كان البنك ربوياً وتؤجّر له عقاراً ليمارس فيه الربا فهذا لا شكَّ أنَّه من الأمور المحرّمة البين حُرمتها.

سؤال (٣): هل يا شيخ نقرأ بعض الكتب المخالفة لبيان معرفة ما في كتبهم من الباطل والتفاهات المنكرة؟

الجواب: لا، لا تقرأ، اقرأ كتب الحقِّ، اقرأ القرآن واقرأ السنَّة، واقرأ كتب العقيدة التي فيها بيان الاعتقاد الصَّحيح، واقرأ كتب الفقه التي يُبين فيها الأحكام ودعك من هذه الكتب، هذه إذا احتيج إلى قراءتها فيقرؤها العلماء الراسخون لردِّ ما فيها من باطل، أمّا قراءتك لها فهذا فيه خطر عليك من حيث أنَّ بعض الشُّبهات قد تدخل ولا تخرج، وقد نقلت لكم مرّة قول عبد الله بن المبارك وهو إمام من أئمة التَّابعين، قال: خشيت أن يطرح في قلبي شبهة تجلجل في صدري حتّى أموت.

سؤال (٤): يستدلُّون علينا بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾^(١) على الاستغاثة به والاستشفاع به ابتداء وطلب المغفرة والاستغفار منه؟
الجواب: هذه الآية يستدلُّون بها وهي من قبيل ما سبق؛ لبس الحقِّ بالباطل ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَأَسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾ الآية أولاً السَّياق برمته عن المنافقين هذا أولاً.

وثانياً السَّياق في حياة النَّبي ﷺ وليس بعد مماته، ﴿وَأَسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾ في حياته، وأمّا بعد مماته

(١) سورة: النساء، الآية (٦٤).

فلا يستغفر لأحد، وهذا نجزم به، لا يستغفر لأحد:

أولاً لعموم قوله -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو علماً ينتفع به أو ولد صالح يدعو له»^(١) لعموم هذا الحديث.

ولخصوص قوله ﷺ الوارد في «صحيح البخاري» في قصته مع عائشة رضي الله عنها لما شكت وجعاً في رأسها فقال -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: «إِنْ كَانَ ذَاكَ وَأَنَا حَيٌّ اسْتَغْفَرْتُ لَكَ»^(٢) والحديث في «صحيح البخاري»، ما معناه؟ يعني إن متُّ قبلك لا أتمكّن من الاستغفار «إِنْ كَانَ ذَاكَ وَأَنَا حَيٌّ» قيّد استغفاره بحياته، والحديث في صحيح البخاري، وكانوا في حياته -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- يطلبون منه الدعاء والاستسقاء، ولمّا مات ما عُرف عنهم شيء من ذلك، فالآية ليس فيها حجة وليس فيها دلالة.

وهذا هو الذي أشرت إليه يأتون بالآية ويلبسون بها على العوام ويصرفونها عن وجهها وعن بابها حتّى يوقعونهم إمّا في البدعة أو في الشُّرك بالله.. والله أعلم، وصلى الله وسلّم على نبيّنا محمّد.



(١) أخرجه مسلم (ح ١٦٣١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري رحمته الله (ح ٥٦٦٦).

الفهرس

٥.....	مُقدِّمة الشَّارِح
٦.....	المُقدِّمة
٧.....	الشَّرْح
١٢.....	الأَصْلُ الأوَّل: إخلاص الدين لله
١٣.....	الشَّرْح
٢٢.....	الأَصْلُ الثَّانِي: الأمر بالاجتماع والنهي عن التفرق
٢٣.....	الشَّرْح
٢٨.....	الأَصْلُ الثَّالِث: السَّمْع والطاعة لمن تأمر علينا
٢٩.....	الشَّرْح
٣٦.....	الأَصْلُ الرَّابِع: بيان العلم والعلماء ومن تشبه بهم
٣٧.....	الشَّرْح
٤٤.....	الأَصْلُ الخَامِس: بيان أولياء الله وأولياء غيره
٤٥.....	الشَّرْح
٥١.....	الأَصْلُ السَّادِس: بيان شبهة شيطانية لترك الكتاب والسنة
٥٢.....	الشَّرْح
٦٠.....	الفهرس

